

القرآن وإعجازه العلمي

محمد اسماعيل ابراهيم



هذا الكتاب

نشر إلكترونيًا وأخرج فنيًا برعاية وإشراف

شبكة الإمامين الحسنين (عليهما السلام) للتراث والفكر الإسلامي

بانتظار أن يوفقنا الله تعالى لتصحيح نصه وتقديمه بصورة أفضل في فرصة أخرى قريبة إنشاء الله تعالى.

القرآن وإعجازه العلمي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المقدمة

لا أراني في حاجة إلى التأكيد على من يطالع هذا الكتاب أنني أعددت رغبة مني في إثبات إعجاز القرآن بأى وجه من الوجوه، لأن إعجازه حقيقة ثابتة وقضية واضحة وضوح الشمس منذ أن نزل القرآن على النبي معجزة كبرى تحدى بها البلغاء والحكماء وأهل الكتب السماوية فجزوا عن تحديها وأقروا بصدقها وتساميتها، ويكفى للدلالة على علو شأنها قوله تعالى: (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وقوله تعالى: (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)، وها هي القرون تلو القرون تمر، وها هي العلوم قد ازدهرت والفنون قد أئبعت؟ ولم يقدر أحد أن يأتي بمثل هذا الكتاب في أسلوبه أو منهجه أو هديه.

وغاية قصدي من وضع هذا الكتاب أو قصد غيري مما كتبوا على نسقه وفي موضوعه من العلماء الاجلاء في إعجاز القرآن إنما كان أولا وقبل كل شئ للتشرف والاستمتاع بالنظر في كتاب الله بعين الاجلال والاعظام والايمان بقداسته، ثم للاشادة بسموه وروعته والتذكير بعلو مكانته بين الكتب السماوية

[٤]

الآخرى فقد حفظه الله من أى تبديل أو تغيير في نصه أو رسمه تحقيقا لقول الله تبارك وتعالى: (إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون) بل إنه جل شأنه كرم هذا الكتاب فقال: (لا يمسه إلا المطهرون) فليس بعد ذلك غاية لتكريم أو تعظيم هذا القرآن المجيد.

واعتقادي أن أى محاولة من البشر لآظهار عظمة القرآن وقديسيته إنما هي وليدة رغبة إيمانية مخلصه فيها ما يشبه التأسى بموقف نبي الله إبراهيم عليه السلام وهو خليل الله عندما قال بروح الوثائق من قدرة الله تعالى: (رب أرني كيف تحيي الموتى، قال: أولم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي).

والقرآن المجيد حافل بالكثير من الآيات الدالة على علم الله المحيط بكل ما في الكون من مخلوقات وكائنات وما فيه من نواميس وسنن وقوانين أوجدها سبحانه خاضعة لأرادته وأمره، وقد نزلت هذه الآيات الكونية وغيرها من آيات الإعجاز العلمي في وقت لم يكن أهل الجزيرة العربية ومن حولها من الاقطار على علم بأسرارها فلما تقدم الانسان وازدادت علومه ومعارفه بدأت آيات القرآن تظهر أمام بصيرته بمعانيها العلمية الباهرة، وتكشف عن إعجازها الرائع.

والمسلمون يعيشون الآن في عصر زاهر بالعلم وقد بهرهم فيه ما وصل إليه أهل أوروبا وأمريكا من تفوق ظاهر في العلوم والفنون والآداب وبخاصة علم التكنولوجيا وقد سبقوا فيها الدول الإسلامية بأشواط بعيدة الامر الذي جعل ضعاف العقول يسيئون الظن بالاسلام ويحسبون أنه سبب قصورهم وتخلفهم في ذلك المضمار، وهم في ذلك الوهم نسوا أو تناسوا أن الدين الاسلامي بقرآنه المجيد وسنته المطهرة هو الذي خلق من العرب أهل البادية خير أمة أخرجت للناس وأسسوا أعظم الدول وأرقى الحضارات وأكثر الاصول العلمية التي اقتبس أهل الغرب منها علومهم وفنونهم.

[٥]

وواجب كل مسلم ألا يختلط عليه الامر في حقيقة كل من الدين والعلم، أو أن ينظر إليهما على اعتبار أن كلا منهما مستقل عن الآخر، إذ الواقع أنهما صنوان متكاملان أصلاً ومتحدان غاية ومنهجا لخدمة البشرية، فلا الدين يجافى العلم ولا العلم يعارض الدين، بل إن الدين بدوره يحض على طلب العلم والاستزادة منه، كما أن نور العلم يظهر لنا ما في الدين من جلال وبهاء وسمو روحى.

والقرآن كتاب الله المجيد الذى يجب على المسلمين أن يحرصوا على حفظه كله أو بعضه عن ظهر قلب والعمل به بحيث يكلف الآباء أبناءهم منذ نعومة أظفارهم باستظهار قصار سوره، ويكلف الشباب بتلاوته دائماً وفهمه، كما يجب ألا يتوانى الكهول عن دراسته وتطبيقه في حياتهم قولاً وعملاً، لان القرآن هو الكتاب الجامع لكنوز العلم النافع وهو الدستور الهادى إلى الطريق المستقيم وأن اتباعه نصاً وروحاً هو الوسيلة العملية الموصلة إلى سعادة الدارين.

وقد نشط علماء الدين على مر العصور واجتهدوا في فهم القرآن والتدبر في آياته وتفسيرها وألفوا في ذلك كتبهم القيمة التي تعتبر من أجل وأبرك ما تركه السلف للخلف، ولكن أغلب ما صدر عنهم من التفسير يدل على أنهم نظروا إلى للقرآن على أنه كتاب دين وهداية وتهذيب وترغيب وترهيب دون تعمق فيما انطوى عليه من معانى علمية أخرى أبعد غاية وأجل شأنًا، وقد عנית الاجيال التالية للسلف الصالح بإعادة النظر في القرآن في ضوء ما كان يجد في مجال العلم الحديث من تطور وتقدم في كل عصر.

وفى عصرنا الحديث أخذت دولة العلم تزداد إتساعاً وعمقا في أبحاثها وتنوعاً في موضوعاتها، وذلك بفضل الطرق التي استحدثتها الإنسان في الكشف عن الحقائق بالمشاهدة والملاحظة والمقارنة واستعمال الأجهزة والمجاهر والمختبرات وإجراء

[٦]

التجارب حتى تمكن بذلك من الوصول إلى نظريات وقوانين وعلوم وفنون لم تكن موجودة من قبل في معارف من سبقوه من العلماء والباحثين.

وعندما جدد العلماء النظر في القرآن الكريم وحاولوا فهمه فهما عصريا وتفسيره في ضوء هذه العلوم الحديثة ظهر بوضوح أن آيات القرآن الكريم لها معانٍ أوسع وأشمل مما فهم العلماء السابقون منها، وتبين بجلاء أن القرآن الكريم جاء بكثير من حقائق الكون ونواميسه وأصول العلوم الحديثة قبل أن يهتدى الإنسان إلى معرفتها بمئات السنين وهذا هو الإعجاز كل الإعجاز الكامن في القرآن وأسرار آياته.

وهكذا يتجلى لنا الدين الإسلامي بقرآنه المجيد وسنة المطهرة وكأنه كنز العلوم والمعارف لانه متصل أشد الاتصال بالعلم قديمه وحديثه، وأنه ليس بمعزل عن الحياة ومشاكلها وتطوراتها، وأنه ما جاء ليعادى العلم وأهله وإنما جاء ليقدم للبشرية منتهى العلم وأنفعه ويقودها إلى طريق الحق واليقين في كل أمر من أمور ديننا ودنيا، وهو بذلك يؤكد ويحقق قول الله تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء).

(سورة الانعام آية ٣٨) وتحدثنا بنعم الله علي أذكر أنني بعد أن قمت بعون من الله بتأليف كتابي (معجم الالفاظ والاعلام القرآنية) وجدنتي راغبا بل مشدودا ومساقا إلى خدمة كتاب الله مرة أخرى في محاولة ترادوني أن أكتب في إعجاز القرآن العلمي على قدر بضاعتي الضئيلة في هذا المجال وقد عزمت وتوكلت مستعينا بحول الله وقوته وبما ألفه العلماء في ذلك، أملا في أن يكون في عملي هذا ما يزيد القارئ للقرآن علما بجلال حقائقه وروعة أسرارهِ وأن يمحو الله به الغشاوة عن أعين الذين عميت أبصارهم عن أنوارهِ، وطمعا في أن يزيل به ظلمات الشكوك والريب

[٧]

من قلوب الذين كفروا بما جاء في هذا الكتاب من الحق ويهديهم إلى سواء السبيل. ومما يشجئني على تأليف هذا الكتاب أنى آنست في كثير من شبابنا المثقف رغبة ملحّة في استجلاء معاني الآيات القرآنية بفهم عصري وميلا إلى الاستزادة من أسرارها ومراميها، وهذه ظاهرة تدعو إلى الاستجابة لها والحث على دوامها وتشجيعها وأرجو أن يقابلها العلماء ورجال الدين من أئمة الدعوة إلى الله تعالى بكل ترحيب وإهتمام وأن يرووا ظمأ الظامئين من فيوض القرآن العذبة وأرجو الله أن يجعل من كتابي هذا منهلا سائغا رويا لمن يطالعه بوعى سديد.

وإنه من المفيد لمن يقرأ هذا الكتاب أن يتعرف على محتوياته واتجاهاته فهو يشمل الابواب الثلاثة الآتية:

الباب الاول: وفيه تمهيد لزيادة التعريف بالقرآن والتأكيد على أنه كتاب الله الذي لا ريب فيه والذي يأمر الشرع بتلاوته.

إظهار موقف العرب من القرآن وقت نزوله وتصديهم له بالتكذيب والحجود.

الباب الثاني: وفيه بيان عن سبب نزول القرآن معجزة معنوية دون غيرها.

من المعجزات الحسية التي كانت لغيره من الانبياء.

عرض لعلم تفسير القرآن والادوار التي مر بها في مختلف العصور.

الباب الثالث: وفيه طائفة من الآيات التي تدل على إعجازها العلمي مع تفسيرها الديني أولاً ثم شرحها في ضوء العلوم الحديثة بفهم عصري لها.

[٨]

وقد إقتضى هذا الباب الاخير الاهتمام بعرض موجز لبعض مبادئ العلوم الحديثة في أبسط أسلوب ومن غير تعمق في تفصيلاتها لبيان توافقها وتطابقها مع منهج القرآن إذا إقتضى الامر زيادة الايضاح. ولا يسعني وأنا أختتم هذه المقدمة إلا أن أحمده الله حمدا كثيرا، وأثنى على فضله ثناء جميلا على ما أولاني من إتاحة الفرصة لتحقيق أمنية عزيزة على نفسي كنت أتمناها لاعداد هذا الكتاب وطبعه ونشره عسى أن يكون لى من وراء ذلك ما أنشده وهو إظهار أقباس من نور القرآن في إعجازه العلمي الذى أعتقد أن كثيرا من المتعلمين المتقين يتطلعون إلى استجلاء أسرارهِ العليا لكي يحققوا لانفسهم مزيدا من العلم والايمان ومزيدا من التمكن والعرفان ببعض ما جاء في آيات القرآن من إعجاز علمي غاية في الروعة والبيان، ولعل في مطالعة غير المسلمين لها ما يحملهم على الايمان بالقرآن وأنه كتاب الاسلام حقا وصدقا.

ولابد لى وأنا أقدم كتابى هذا أن أقول وحق أن ليس لى فيه من فضل يذكر في تأليفه أكثر من أنى تتبعت آيات الاعجاز العلمى: بالبحث والتنقيب عنها ثم جمعها والتنسيق لها، ثم عرض ما قطفته من ثمرات العلماء الاجلاء وآراء الخبراء النجباء الذين كان لهم فضل السبق في فهم القرآن وتفسير آياته في ضوء العلوم الحديثة التى هدى الله عباده إلى وضع قواعدها وهى العلوم التى أصبحت حقائق لا يعثرها شك لان العلماء كرسوا حياتهم في بحثها ودارستها بالفحص والتجريب حتى صارت لهم حصيلة تزداد نماء ورسوخا وتنوعا وتفرعا، وصارت لها مع آيات الله توافق عجيب وتطابق رائع حقا.

وهناك حقيقة أخرى في هذا الاعجاز العلمى المشهود في قراءنا وهو أن هذا الاعجاز لم ينته بعد بل هو قائم وممتد على طول العصور القادمة، وسوف تشهد

[٩]

القرون المقبلة من إعجاز القرآن آفاقا جديدة لأن الشواهد دلت على أنه كلما تقدم العلم وتعمق الانسان في بحوره يجد مع كل ظاهرة علمية كانت في طي الخفاء أن لها أصولا في القرآن سابقة عليها، وسوف يبقى هذا السبق سمة ملازمة للقرآن ومستوعبة لكل ما سوف تأتي به العلوم على مدى الازمان، وفي هذا ما يؤكد ويحقق قول الله تبارك وتعالى: سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق). وإنى أدعو الله الكريم أن يقبل عملي هذا قبولا حسنا وأن يجعل منه كتابا ينطق بالصدق ويدعو إلى ذكر الله والتذكير بجلاله وعظمته وأن يحيى به قلوب من قرأه بوعى وانتفع به في دينه ودنياه، وتؤكد أن كل ما يدعوا إليه هو التدبر في ملك الله بقلب سليم.

والله الهادى إلى سواء السبيل؟ المؤلف محمد اسماعيل ابراهيم ٢٢ شارع المنتزه بالزمالك بالقاهرة

الباب الاول: القرآن

بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ(سورة البروج آية ٢١)

القرآن الكريم هو كلام رب العالمين نزل به الروح الامين على خاتم الانبياء والمرسلين سيدنا محمد لهداية الناس أجمعين، وقد جاء معجزة خالدة تحدى بها الاسلام العرب فعجزوا عن مجاراتها فيما حوت من إعجاز في نظمها وأسلوبها وما اشتملت عليه من روائع الشرائع والحكم والعلوم والامثال، وإن أفضل استهلال لموضوع هذا الكتاب هو أن نبدأ بذكر بعض ما ورد من وصف للقرآن في كتاب الله الكريم وما جاء في سنة رسوله العظيم عنه، وما نطق به لسان الحق من الخلق أجمعين تمهيدا للتعريف بجلال القرآن وحقيقة قدسيته، ثم نشفع ذلك بما يجب معرفته بالضرورة من أنه معجزة الاسلام الكبرى: آيات من كتاب الله تعالى في وصف القرآن: يقول الله تبارك وتعالى في أول سورة البقرة تعريفا بالقرآن: (ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون).

ويقول سبحانه وتعالى في أول سورة الكهف: (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكتين فيه أبدا).

ويقول جل من قائل في سورة المائدة آية - ١٦:

[١٣]

(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهذى به الله من أتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم).

وقال تعالى في سورة الانعام آية - ١٥٥: (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه وأتقوا لعلكم ترحمون).

وقال تعالى في سورة فصلت آية (١ - ٤): حم، تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون).

ما جاء في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن القرآن: (أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن) (القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم) (نوروا منازلكم بالصلاة وتلاوة القرآن) (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) (أهل القرآن أهل الله وخاصته) (وهم الحافظون له والعاملون بما فيه) (إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، فقل يا رسول الله وما جلاؤها؟ فقال: (تلاوة القرآن وذكر الموت) (ما من أحد يعلم ولده القرآن إلا نوج يوم القيامة بتاج في الجنة) وفي حديث طويل للرسول صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: (ستكون فتن كقطع الليل المظلم، قيل يا رسول الله وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله

[١٤]

تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن أتبع الهدى من غيره أضله الله فهو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الالسنه، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يملأه الاتقياء، ولا يخلق على كثرة التكرار، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: (إنا سمعنا قرآنا عجبا) من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم).

وفي خطبة من خطبه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن أصدق الحديث كتاب الله وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الممل ملة إبراهيم، وخير السنة سنة محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن). وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: (قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرأ القرآن) قال: (فقلت يا رسول الله أقرأ عليك القرآن وعليك أنزل؟ قال: (إني أشتى أن أسمع من غيري).

أقوال بعض العلماء في القرآن: ذكر السيوطى في تعريف القرآن: إن القرآن إنما صار معجزا لانه جاء بأفصح الالفاظ في أحسن نظم التأليف متضمنا أصح المعانى من توحيد الله تعالى وتنزيهه في صفاته، ودعائه إلى طاعته، وبيان لطريق عبادته من تحليل وتحريم؟ وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهى عن منكر وإرشاد إلى محاسن الاخلاق وزجر عن مساوئها، واضعا كل شئ منها موضعه الذى

[١٥]

لا يرى شئ أولى منه، ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه، مودعا أخبار القرون الاولى الماضية، وما نزل من مثلات الله بمن مضى، وعائد منهم منبئا عن الكوائن المستقبلية والاعصار الآتية من ذلك، جامعا في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه ليكون ذلك أكد للزوم ما دعا إليه وأنبا عن وجوب ما أمر به ونهى عنه.

وقال بعض العلماء عن مضمون القرآن أنه اشتمل على أنواع من الاعمال كلف الله بها عبادة للقيام بأدائها وهي: أولاً: معاملة بين الله والعبد وهي العبادات التي لا تصح إلا بالنية، ومنها عبادات محضة وهي الصلاة والصوم، وعبادة مالية اجتماعية وهي الزكاة، وعبادة بدنية اجتماعية وهي الحج وقد اعتبرت هذه العبادات بعد الايمان أساس الاسلام.

ثانياً: معاملة بين العباد بعضهم مع بعض وهي أقسام منها:

(أ) مشروعات لتأمين الدعوة بالجهاد بالنفس والمال في سبيل الله.

(ب) مشروعات للأسرة وهي ما يتعلق بالزواج والطلاق والمواريث.

(ج) مشروعات لبيان المعاملة بين الناس من بيع وإجارة وهي بالمعاملات.

(د) مشروعات لبيان العقوبات على الجرائم وهي القصاص والحدود.

وقد عرف الأستاذ فريد وجدي مقاصد القرآن بقوله: (القرآن وحى إلهي نزل به الروح الامين جبريل على قلب رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين نذيراً وبشيراً، وعقيدتنا معشر المسلمين أنه الكتاب الجامع لاشتات الحكم ومتفرقات الاصول، وأنه فيه خلاصة سائر الكتب السماوية المتقدمة وأنه

[١٦]

جاء بالناموس الاعظم لكمال الحياتين الدنيوية والاخروية، وأنه آخى بين طبيعتي الانسان الجسدية والروحية، وأنه أنزل للعالمين أجمعين وروعت فيه مصالحهم على قسطاس مستقيم، ولا جرم أن كتاباً هذا شأنه لابد أن يكون رامياً إلى قصد ومتوخياً في تعاليمه دستوراً، ولا بد أن يكون قد وعد وأوعد، وبشر وأنذر، ورغب ونفر، وبنى وهدم، وقوى ووهن، ووصل وقطع، وسلك لكل ذلك مسالك خاصة أدته إلى المكانة التي بلغها في نفوس الآخذين به قديماً وحديثاً.

القرآن آخر الكتب السماوية: جاء في بعض الآثار عن عدد الصحف السماوية المنزلة ما روى عن أبي زر الغفاري قال: (قلت يا رسول الله كم كتاباً أنزل على أنبيائه؟ قال الرسول: مائة صحيفة وأربعة كتب، فقد أنزل على آدم عشر صحائف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل التوراة والانجيل والزبور والفرقان (وهو القرآن) وقد نزلت الكتب المقدسة جميعها دفعة واحدة إلا القرآن فقد نزل منجماً أى مفزقاً.

فالقرآن آخر الكتب السماوية أنزله رب العزة جل جلاله على خاتم أنبيائه ورسله محمد صلى الله عليه وسلم، وقد ثبت نزوله بكل من الدليلين العقلي والنقلي، أما الدليل العقلي فهو ما تضمنه هذا الكتاب من وجوه الاعجاز الذي تحدى الانس والجن أن يأتوا بمثله فعجزوا عجزاً مطلقاً وما يزال التحدى قائماً إلى يوم القيامة.

وأما الدليل النقلى فهو ما نقله إلينا السلف الصالح الذين عاشوا في زمن النبى وعاصروه، فقد ثبت بالتواتر الذى لا يرقى إليه شك أن القرآن كلام الله الذى

[١٧]

كان ينزل على النبى ويوحى إليه به بمرأى ومسمع من عشيرته وصحابته المعاصرين والملازمين له، وكان النبى يأمر كتاب الوحي أن يسجلوا آياته فور نزولها على رقاع من العظم أو الجلد أو الجريد أو الحجارة وعلى كل ما كان ميسورا وصالحا للكتابة عليه وقتئذ.

موقف العرب إزاء الدعوة الإسلامية والقرآن: لم يجد النبى من العرب عامة ومن قريش خاصة عندما أعلن دعوته بدين الإسلام سوى الصد والتكذيب والسخرية والاستهزاء والايذاء، فقد رموه بالكهانة تارة وبالجنون تارة أخرى، كما أعلنوا التكر للقرآن وقالوا عنه إنه سحر مفترى، وقد تعرض النبى وكل أتباعه من المؤمنين لأشد ألوان الاذى والاعتداء ولم يثنه ذلك عن مواصلة جهاده وإعلان دعوته للتوحيد والخط شأن معبوداتهم من الاصنام والوثان، وقد حاولوا أن يصرفوه عن دعوته بكل وسائل الارهاب وبالوعد والوعيد فكان يرد عليهم قائلاً: (إن الله بعثنى رسولا وأنزل علي كتابا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر ربى حتى يحكم بينى وبينكم).

استعانة قريش باليهود في معارضة النبى وتحدى القرآن: استعان القرشيون في معارضة الدعوة الإسلامية وقرأنها بأحبار اليهود لانهم أهل كتاب يدعو للتوحيد لعلمهم يجدوا لديهم أدلة يدحضون بها ما أنزل من الوحي على النبى، وكان اليهود يومئذ من ألد أعداء الاسلام ورسوله لانهم

[١٨]

يعتقدون أن النبى المنتظر سيكون من بنى إسرائيل لا من العرب، فأوعز اليهود لقريش أن يسألوا النبى عن ثلاثة أشياء فإن أخبرهم بهن فهو نبى مرسل، وإن لم يجب عنها فهو مدع منتحل للنبوّة، وقالوا سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الاول، وعن رجل طواف، وعن الروح، وقد نزل الوحي بالاجابة عن هذه الاسئلة بأن الفتية الذين ذهبوا في الدهر هم أهل الكهف، وقد ذكر القرآن قصتهم، وأن الرجل الطواف هو ذو القرنين المذكورة قصته أيضا في القرآن، أما عن الروح فكانت الاجابة عليها قوله تعالى: (الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا).

عناد قريش وتخبطهم في تكذيب القرآن: لقد كانت قريش أحرص الناس على إطفاء نور القرآن والطعن في إعجازه والسعى في إخفاء حقائقه وإبعاد تأثيره القوى في نفوس من يسمعه عن القبائل وذلك بالدعايات الكاذبه، ولو كان في مقدورهم معارضة القرآن والاثيان بشئ من مثله لفعلوا، ولكنهم قالوا عن القرآن إنه سحر كما جاء ذلك في قوله تعالى: (وإذا تلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر

(مبين)(سورة الاحقاف آية - ٧) ثم قالوا عن القرآن إنه شعر شاعر فرد القرآن عليهم بقوله تعالى: وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين(سورة يس آية - ٦٩) ثم عادوا فقالوا أنه أساطير الاولين علمها له غيره من العارفين بها فيرد عليهم الحق سبحانه وتعالى بقوله:(وقالوا أساطير الاولين اكتبها فهي تملأ عليه بكرة وأصيلا)(سورة الفرقان آية - ٥) وقد اتهمه بعضهم بالجنون فرد القرآن عليهم بقوله تعالى:(ويقولون أننا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون، بل جاء بالحق وصدق المرسلين):(سورة الصافات آية - ٣٦، ٣٧).

[١٩]

شهادة الوليد بن المغيرة أبلغ فصحاء العرب في القرآن: أعيت الحيل القرشيين في محاربة القرآن بتكذيبه وإطفاء نوره والحد من تأثيره في قلوب سامعيه فاجتمعوا عند الوليد بن المغيرة أحد بلغاء العرب يتشاورون فيما يمكن عمله لابطال سحر البيان في هذا القرآن العجز الذي كانت وفود القبائل الآتية إلى مكة للحج تستمع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يرثله فيبلغ تأثير القرآن أعماق نفوسهم ويروعهم أسلوبه ومعناه، وحارت قريش في أمرها وكيف يصدون هذه القبائل عن الاجتماع بمحمد والاستماع لرسالته فكانوا يقولون لهم مرة إنه كاهن، ومرة أخرى يقولون عنه أنه ساحر ومرة ثالثة يقولون عنه إنه شاعر ولكن عقلاء القبائل ما كانت في قرارة نفسها تصدق هذا الكلام المناقض لجلال ما يسمعون من آيات القرآن والذكر الحكيم. وأخيرا استقر رأي قريش أن يوزعوا أنفسهم عند مفارق الطريق الموصلة إلى مكة ويجلسون عند مداخلها لمقابلة القادمين وتحذيرهم من مقابلة محمد أو الاستماع إلى حديثه وقرآنه، ولما كانت قريش مسموعة الكلمة في العرب فكان كثير من هؤلاء الوافدين ينقادون لرأيهم، وكان الوليد بن المغيرة أشد المؤمنين بأن ما يتلوه محمد من القرآن حق لا ريب فيه، وكان يقول لقومه عن القرآن:(إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلو عليه، وكان ينصح قومه أن يتركوا محمدا وشأنه لانه توسم مجسه المرهف أن دعوة محمد ستكون لها شأن وأى شأن).

معجزة النبي الكبرى هي القرآن: إن كلمة القرآن لفظ مشتق من مادة قرأ وهي أول كلمة نزل بها الوحي على النبي في غار حراء إشارة إلى مكانة القراءة التي هي السبيل إلى العلم وسر التقدم

[٢٠]

والارتقاء في الحياة وكانت معجزة النبي هي القرآن الذي كان يتلوه المسلمون في حياته والذي سوف يتلوه من بعده ألوف مؤلفة لا حصر لها إلى يوم القيامة ولم تكن معجزته معجزة مادية محسوسة كمعجزات الانبياء السابقين وقد طالبه قومه بالحاح بمعجزة حسية ملموسة حتى يؤمنوا برسالته، والقرآن يقص علينا ذلك في قوله تعالى في سورة الاسراء - آية ٩٢.

(لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا، أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء علينا كما زعمت كسفا، أو تأتي بالله والملائكة قبلا، أو يكون لك بيت من زخرف، أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه) فكان الجواب على هذا التحدى أن قال الرسول بأمر الله (قيل سبحانه ربى ! هل كنت إلا بشرا رسولا؟) وكان هذا هو الجواب المفهم بالحق والصدق أمام تعنت المتعنتين المطالبين بالبراهين المادية.

لماذا كانت معجزة محمد صلى الله عليه وسلم هي القرآن؟ إن السر في أن يكون القرآن هو معجزة النبي الكبرى تتجلى في أنها المعجزة المعنوية القدسية ذات الاسرار الروحية المتصلة بالملا الاعلى، وأن فيه علوما وفيوضات آلهية جعلته الكنز الرباني الخالد على الدهر وأن له البقاء والنماء المعنوى والروحى ما دامت اللسان ترتل آياته والقلوب تخشع عند سماعها والجلود والجوارح تلين وقت التأثر بها، ولم تشأ إرادة الله الحكيم العليم أن يجعل معجزة النبي معجزة مادية حسية كما كانت معجزات الانبياء من قبل عندما ظهرت للعيان ثم اختفت لأنها عاشت في ذاكرة الناس مع حياة أنبيائها فقط، فلما ذهبوا ذهبوا وانطوت بموتهم، وإنما أرادها الله لنبيه محمد أن تكون معجزته قرآنا خالدا على الدهر، وتبقى معجزة حية ما دام النبي حيا وأن تظل كذلك حية بعد موته

[٢١]

وإلى أن يرث الله الارض ومن عليها، وذلك لأنها خاتمة الرسالات للناس أجمعين وليست بعدها رسالات ولا معجزات أخرى، ويكفى في تفوقها أنها جمعت فأوعت كل ما تحتاج إليه البشرية من أصح العقائد الحقّة وأسمى المبادئ القويمة وأرقى المناهج للصالح والاصلاح والفلاح، وأخلص العبادات الموصلة قولاً وعملاً إلى رضوان الله تعالى وسعادة الدارين.

وكل الذين هداهم الله ووفقهم إلى قراءة القرآن وتدبر آياته من يوم أن نزل على النبي صلى الله عليه وسلم وإلى ما شاء الله يؤمنون بقدسيته ويقرون بروعته البيانية ويشعرون بلمساته الروحية ويأمنون بنفحاته السماوية، ويرجع ذلك إلى حقيقة ذاتية في القرآن تتمثل في كيانه القائم على الحق وفي أسرارهِ العلوية التي تكمن وراء ألفاظه ومعافيه والتي تتجلى في جاذبيته الآلهية التي تأخذ بقلوب مرتليه وسامعيه، وليس أدل على ذلك من أن أبلغ بلغاء العرب من قريش كانوا إذا سمعوا آيات الله تتلى عليهم يستولى على مشاعرهم سحر بلاغتها، وقد بلغ من افتتان بعضهم بها أنهم كانوا يتسللون فرادى في دجى الليل على مقربة من دار النبي ينصتون إلى تلاوة القرآن فتملاهم تلاوته إعجابا وتقديرا واستمتاعا بما فيه من حلاوة وطلاوة وسمو روحى يأخذ بألبابهم، ومن عجيب أمر هؤلاء العرب الذين أنكروا القرآن وإعجازه في الاداء والبيان هم أبناء الامة التي كان لها غرام بالبلاغة والفصاحة حتى أنهم كانوا يعقدون الاسواق الادبية كل عام ليعرض

فيها الادباء والشعراء إنتاج مواهبهم ويدعون الحكام للحكم بين الشعراء والادباء لتكريمهم والاحتفال بالنوابغ منهم.

دلائل إعجاز القرآن: اشتمل القرآن الكريم على عدة دلائل قوية وبراهين دامغة على أنه المعجزة الكبرى وأنه آية من آيات الله العظمى الخالدة على الدهر ومن ذلك:

[٢٢]

أولاً: بلاغته الفريدة في نظمه ولفظه وأسلوبه ومخالفته لمناهج العرب في فصاحتهم وبلاغتهم التي كانوا يعتزون بنبوغهم فيها، إذا لم يكن شعرا موزونا ولا نثرا مرسلا ولا سجعا مقفى وإنما هو نهج مستقل قائم بذاته في جمال عباراته العذبة وصياغة معانيه السامية التي لم يكن للعرب عهد بمثلها من قبل حتى أن بلغاءهم ما كانوا لا يدرون من أي ناحية من نواحيه يتملك مشاعرهم ويستولى على عقولهم وكانوا من فرط حيرتهم في وصفه يقولون عنه إنه السحر وما هو بالسحر.

ثانياً: حفل القرآن بالكثير من قصص الانبياء والرسل وأخبار الامم السابقة وأحوالهم بما يطابق الصادق المؤكد مما جاء في كتب أهل الكتاب من اليهود والنصارى، مع أن النبي صلوات الله وسلامه عليه نشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب وقومه يعلمون أنه لم يدرس ولم يتعلم على يد أحد شيئاً من العلم، فمن أين له هذه الانباء والمعلومات عن الرسل والانبياء وعن التاريخ القديم للامم والشعوب؟ إنه لا شئ سوى الوحي الذي يوحى إليه من ربه الذي يقول في كتابه العزيز في سورة العنكبوت - آية ٤٨: (وما كنت تتلو قبلاً من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون)، ولما تملكهم الحيرة في شأن القرآن وروعته افتروا على الله الكذب وأدعوا أن أحد فتيان الروم علمه سرا هذه الاخبار كلها وهذا كذب صراح لان هذا الرومى المزعوم كان أعجمياً لا يحسن العربية، ويكذب القرآن افتراءهم هذا بقوله تعالى في سورة النحل آية - ١٠٣: (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين).

ثالثاً: لم يقتصر القرآن على ذكر أخبار أحوال الامم الماضية وأنبيائهم ورسلمهم وما جرى من الحوادث التي مضى عليها زمن طويل بل أخبر كذلك عن أمور سوف تقع في المستقبل وقد تحقق فعلاً وقوعها، ومن ذلك ما أخبر به

[٢٣]

القرآن عن دولة الروم المسيحية التي غلبتها دولة الفرس الوثنية أولاً، ثم أخبر القرآن بأن دولة الروم المغلوبة سوف تنتصر بعد بضع سنين كما جاء ذلك في قوله تعالى في سورة الروم آية ١ - ٤: (ألم، غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد عليهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون).

ومن ذلك أيضا ما أخبر به القرآن عن وعد الله لرسوله بأنه سوف يفتح مكة ويدخل المسجد الحرام، وقد تحقق ذلك فعلا بعد فترة وجيزة من الزمن فقال تعالى في سورة الفتح آية - ٢٧: (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا).

رابعا: ما تضمنه القرآن من أمور دينية ما كان العرب يعرفون عنها شيئا مثل عقيدة التوحيد وإيمان بالغيب وبيوم القيامة والحساب والجزاء والجنة والنار والملائكة وغيرها من المسائل الأخرى الخاصة بالتشريع ومعرفة الحلال والحرام والحقوق والواجبات للأسرة والوطن ثم بيان ما يجب على الإنسان من مكارم الأخلاق وروح الأخوة والتعاون والبر والتقوى مما يؤدي إلى سعادة الدارين.

وكان النبي صلوات الله وسلامه عليه يتلو على الناس ما أنزل إليه بلسان عربي مبين في موضوعات أخرى شتى وهو الأمي الذي لم يدرس من أمور التشريع ولا من أمور الغيب ولا من أصول الأخلاق أو علم النفس أو علم الاجتماع شيئا، فمن أين له هذا الكنز الفياض بهذه العلوم والمعارف في دقة وروعة وإحكام؟ أنه النبوة الموحية إليه بهذا كله من عند الله تعالى.

[٢٤]

خامسا: لقد انطوى الكريم على آيات بينات كثيرة فيها حقائق علمية غاية في الإصالة والموضوعية فيما يتعلق بالكون والسموات والأرض والنجوم والكواكب التي تجرى في أفلاكها وتعاقب الليل والنهار ثم ما جاء عن خلق الإنسان وتطوره جسما وعقلا وروحا ثم ما ذكره عن النبات والحيوان والحشرات كما أن القرآن تكلم عن السحب والأمطار والعواصف والجيال والأشجار والأنهار والبحار وغير ذلك من الكائنات والمخلوقات كبيرها وصغيرها وكل ذلك لم يكن الإنسان قبل نزول القرآن ولا بعد نزوله بزمان طويل يعلم عن حقائقه شيئا ولا يدرى من أسبابه وأساره أى شئ بل ظل ذلك كله سرا مطويا عن العقل البشري إلى أن جاءت عصور النهضة العلمية التي أخذ الإنسان خلالها يدرس ويبحث وينقب بحثا عن الحقائق الكونية والكشف عن أسرارها ونواميسها شيئا فشيئا حتى صارت لديه حصيلة قيمة من العلوم والمعارف والقوانين والنظريات التي عن طريقها بدأ الإنسان يعرف ما جاء به القرآن منها وذلك قبل نهضته العلمية الحديثة بزمان بعيد.

سادسا: أن القرآن الكريم وقد مضى على نزوله حتى الآن نحو أربعة عشر قرنا لم يظهر في نصوصه ولا في معانيه أو مرامييه أى خلل أو تناقض أو اضطراب أو قصور فيما عبر به عن الحياة الدنيا وأحوالها أو ما جاء به من حقائق ومبادئ وتشريع وأحكام ونظام وقد حاول أعداء الإسلام خلال هذه القرون وبعد أن قرأوا القرآن مرارا ونخلوه وغربلوه.

تكرارا لكي يجدوا فيه أى ثغرة من خطأ أو نقص أو ضعف في أى شئ فما وجدوا فيه غير الحق الصراح والعقائد القويمة والهداية الشاملة في أروع ظواهرها وبواطنها ويقول الله تعالى في سورة النساء آية - ٨٢: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا).

[٢٥]

ويتجلى إعجاز القرآن بصفة خاصة في وجهين هامين من إعجازه: أولهما ما يتعلق بمنهاجه البياني وثانيهما منهاجه العلمى.

أما منهاجه البياني فقد لمس العرب لانهم كانوا أول من خوطبوا به وأدركوا ما في آياته من بلاغة وفصاحة وجزالة في ألفاظه ومعانيه، وقد أقرّوا بعجزهم عن تحديه، وظل إعجازه البياني قائما في الجزيرة العربية طيلة عصر النبوة وما بعده إلى ما شاء الله تعالى.

وأما منهاجه العلمى فقد كان إعجازا ممتدا على مدى العصور وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك لما اشتمل عليه القرآن من علوم كونية وحقائق علمية وتشريعية لم تكن معروفة في عصر النبى صلى الله عليه وسلم، وسيظل هذا المنهاج العلمى هو معجزة الاجيال كلها بما يظهر منها تباعا.

ومنهج الاعجاز البياني يتمثل في تأليف كلماته وتأخيها، وتلاقيها في عباراته المنسجمة وفى نظمها المحكم ورنينها الموسيقى، وقد جاءت المعانى القرآنية مؤاخية للالفاظ وكأن الالفاظ قطعت لها وسويت على حجمها، ومن أمثلة التناسق بين الالفاظ ومعانيها قوله تعالى: (والصبح إذا تنفس) فإن استعمال لفظ تنفس لا يمكن أن يوضع مكانه لفظ آخر ليؤدى معناها، وذلك لان التنفس يندرج فيه ثلاثة معان تتصل بالحياة الدائمة المستمرة أولها التنفس بمعنى الحياة وثانيها حركتها واستمرارها وثالثها تدرجها في الظهور شيئا فشيئا، فلو وضعت كلمة أشرق بدل تنفس أو أصبح أو أثار أو أضاء لا تقوم مقام تنفس ولا تغنى عنها. ومثل آخر للعبارات التى ترد في القرآن ولها معان لا يحل محلها أى تعبير آخر

[٢٦]

كما في قوله تعالى: (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها، فأنتبعه الشيطان فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض وأتبع هواه، فمثله كمثل الكلب، إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث ذلك مثل، الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون)(الاعراف ١٧٥ - ١٧٦).

وتصور هذه الآيات رجلا أتاه الله العلم بالآيات الموجبة للتصديق بالحق، وأن هذه الآيات أحاطت بقلبه ونفسه كما يحيط الالهاف أى الجلد بالجسم ولكنه ترك الاخذ بالهدى استجابة لداعى الشيطان، وصار من الضالين الذين أغواهم إبليس اللعين فكان مثله كمثل الكلب يلهث دائما، إن ترك يلهث، وإن حمل عليه يلهث، فكل كلمة في هذه الآيات تؤدى معنى لا تعنى عنه كلمة أخرى مهما حاول الانسان ذلك، والعبارات صادقة ومطابقة للحال في تصوريها.

وأما المنهج العلمي من الاعجاز فهو موضوع هذا الكتاب بالذات وسوف فعرض له مجموعة من الآيات التي تبين كيف حفل القرآن بأصول العلوم المتصلة بنشأة الكون وخلق الانسان والكائنات كلها، وكيف أنه طلب منا التفكير والتدبر في أسرارها وحكمتها.

القرآن والعلم: فليس غريبا ولا عجيبا أن يأتي القرآن وهو المعجزة الكبرى بكل الموافقات والمطابقات لكل ما وصلت إليه العلوم الحديثة من نتائج ووصل إليها العلماء بعد مئات السنين من الدراسة والبحث والتأمل لانه كلام الله العليم بالسر وأخفى في ملكه العظيم وإن كثيرا من القضايا الاجتماعية والسياسية والحربية والتشريعية

[٢٧]

والاخلاقية وغيرها جاء بها القرآن قبل أن تكون شيئا مذكورا في معارف الانسان وقت نزول القرآن ثم ظهرت معالمها واضحة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم بزمان طويل، بل أن في القرآن ما هو أكثر من الاعجاز العلمي ألا وهو ما أخبر به القرآن في عدة آيات بأمور لم يكن أحد يعلم أسرارها الغيبية مثل ما حدث في الملاء الاعلى قبل ظهور الانسان عندما خلق الله آدم عليه السلام وما كان من سجد الملائكة له وهبوطه إلى الارض وخلافته فيها، فهل ذلك كله من علم محمد رسول الله حتى يذكره لنا مفصلا؟ كلا أنه كتاب الله الذي يتحدث عن علم الله المحيط بكل شيء.

المصحف كيف توحد وانتشر: إن كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم سورا أو آيات متفرقة في في مدى ثلاث وعشرين سنة والمنقول تواترا صحيحا والمتعبد به تلاوة وعملا والمجموع كله بين دفتي المصاحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس، كان في أول الامر وعلى عهد النبي مكتوبا على رقايع متفرقة من الجلد أو العظم أو جريد النخل أو قطع الحجارة كما كان محفوظا في صدور الصحابة الذين حفظوه عن ظهر قلب، فلما قامت حروب الردة في خلافة أبي بكر الصديق وقتل فيها أكثر الصحابة المجيدين لحفظ القرآن، هال هذا الامر عمر بن الخطاب وأشار على أبي بكر بجمع الرقايع ونسخها، فاستجاب أبو بكر لذلك وأمر زيدا بن ثابت وهو من أبرز كتاب الوحي أن يقوم بجمع القرآن من الرقايع المكتوب عليها ومن صدور الحفاظ فنسخه وحفظت هذه الاصول المنسوخة عند أبي بكر فلما مات حفظتها السيدة حفصة ابنة عمر عندها، وفي عهد سيدنا عثمان بن عفان ظهرت بعض اختلافات في القراءات بين المسلمين فرأى عثمان منعا لهذه الاختلافات أن

[٢٨]

يدون مصحفا واحدا مأخوذا من الاصول المحفوظة عند حفصة وأن ينسخ منها عدة مصاحف أعدها وأرسلها إلى الامصار الاسلامية ثم أحرق جميع الرقايع الاخرى كما أعدم كل ما سوى المصحف الموحد

حتى لا يفتح باب الزيادة أو النقص أو التحريف في كتاب الله وخاصة بعد اختلاط العرب بأهالي البلاد غير العربية التي فتحوها وبذلك تحقق قول الله تعالى: إنا أنزلنا الذكر وإنا له لحافظون).

وسوف يبقى القرآن إلى ما شاء الله المعجزة الالهية الخالدة وسوف يبقى كلام الله عزيزا بقدسيته غنيا بنفسه متلا لا بآياته التي كلما مضى عليها الزمن إزدادت إشراقا وبهاء لأنها أنوار آلهية وضاءة وطاقة علوية خلاقة وقوة روحية وثابة تدفع كل من يؤمن بها إلى العمل والجهاد والرقى حسا ومعنى، ولا يغيب عن البال أن كتاب الله حليف العلم والعلماء، وعدو الجهل والجهلاء وداعية الهدى والاهتداء ثم هو كتاب الله الذي لا يرضى مطلقا عن الجمود والركود والاستخذاء وما كان في أي حال أو في أي عهد من عهود الزمان متعارضا أو متناقضا مع أصول العلم ومناهج الحكمة ونواميس الكون بل إنه كلما اكتشف العلماء جديدا من كليات العلوم وأصولها أو أي شئ من كنوز الحكمة وجدوا لها في كتاب الله مواضع وإشارات تتم عليها وتدل عليها.

إن هذا القرآن هو كلام الله الحق وقد وعد المسلمين فيه بالتمكن في الارض والاستخلاف فيها بقوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنكم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) فماذا جرى ونحن المسلمون المخاطبون بهذه الآيات وقد تخطانا هذا الوعد بأن يستخلفنا الله في الارض؟ أما أن لنا معاصر

[٢٩]

المسلمين ونحن في كثرة من العدد ووفرة من الموارد أن نتحد ونتعاون ونستعيد أجادنا بأن نتعلم كل ما هيا الله في الارض من علم، وما يلهم به من عمل وصناعة ورقى مادي واختراع لكي نعد أنفسنا لحياتنا العصرية التي لا تتفوق فيها الامم إلا بالايمن وبالعلم وتطبيقاته، ولدينا من الحوافز القوية من كتاب الله وسنة رسوله ما يجعلنا خير أمة أخرجت الناس.

وفى ختام هذا الباب يطيب لى أن أسجل ما سبق لى أن كتبت ونشرته في كتابي (مع الله) في باب كلام الله وهو القرآن ما يأتى بأسلوب الشعر الحر: كلام الله يتلوه أهل الذكر على مكث فيحدون هديه أجمل ما يكون. وهم يرددون تلاوته آناء الليل وأطراف النهار ما استطاعوا ولا يسأمون.

وكل الذين يرتلون به فهم يحسون قدسيته فتتشعر منهم الجلود ثم تلين.

وكل الذين يتدبرون آياته يلهمون من أسرار وأهدافه أكثر وأمتع مما يعلمون.

وكل الذين يتفرغون لدراسته تتكشف لهم كنوز قيمة من العلوم والفنون وهكذا كل من يقرأ القرآن بفهم يجد فيه ينابيع من التقى تروى قلوب المؤمنين.

فتعلق يأخى بحبل القرآن وأحرص على تلاوته وفهمه ولا تكن عنه من الغافلين لقد أنزل الله كتابه وقال له: كن لقرائك الأبرار شفاء لما في الصدور .

وكن نورا يهتدى به من يتعلمه ويحفظه ويتلوه خاشعا في مساء وبكور .

وكن أيها القن أن مذكرا بالغيب وبحقيقة الحساب يوم البعث والنشور .

وكن أيها القرآن معلما ومرشدا للناس بأن الآخرة هي دار القرار والمصير وأن هذه الحياة الدنيا متاع قليل، فلا يلهمهم الأمل عن مآلهم بالغفلة والغرور .

وأن الله سبحانه حسيب رقيب لا يغفل عن صغير من عملهم أو كبير .

وهكذا القرآن على منوال الهدى ينسج الوعظ وعلى محور التقوى يدور .

[٣٠]

والقرآن معجزة الله الباقية من المعجزات التي جاءت وأنتهى أمرها بزمانها .

ومعجزة القرآن جاءت كاملة خالدة لندوم إلى ما شاء الله تعالى لدوامها .

وكل الكتب السماوية السابقة حرفت ولم يبق غير الاطلاع من جلال أصولها .

أما القرآن الكريم فهو باق على الدهر لا يتغير وآياته حافظة لرسمها ونصوصها .

أليس في ذلك ما يقنع أهل الشك بالدليل القاطع على صدق آياته وإعجازها .

وكم من جاجدين حاقدين يتمنون لو يعثرون على تناقص أو نقص في كمالها .

وقد مضت القرون وما وجد المنقبون في آيات القرآن غير الحق في طياتها .

الباب الثاني: القرآن روح الدعوة الإسلامية ومحور ثقافتها

قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين .

إن القرآن الكريم منذ نزل على محمد صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا هو ركيزة التوحيد الخالص وكنز العقائد الإيمانية ومصدر الأحكام الشرعية ودليل الحقائق الكونية كما أنه الملهم بالفتوحات الإلهية والباعث على الجهاد والاجتهاد في العبادة والطاعات، والحافز للعقول إلى التفكير في خلق السماوات والأرض وغير ذلك من المجالات المتعلقة بالحسيات والمعنويات، فهو بحق مدار لكل حركات فكرية أو نهضات إصلاحية أو أعمال عمرانية وتقدمية على مدى الزمن .

الله هو الخلاق العظيم

خلق الله الاكوان كلها من العدم، وأبدع صنعها وأتقن كل شئ من ظواهرها وخوافيها وجلانها ودقائقها، ولا تخفى عليه ذرة من مقوماتها وسننها ونواميسها فإذا ذكر سبحانه عنها شيئاً في قرآنه فهو قول العليم الخبير الذى لا يعزب عن علمه شئ منها في الارض ولا في السماء، والقرآن بهذه المزايا الربانية هو المرجع الجامع لكل علم نافع أو نهج قويم يوصل إلى سعادة الدارين، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول في حديث له: (من ابتغى الهدى في غير القرآن أضله الله).

ولا يتاح للبشرية إن تنتفع بالقرآن وتهتدى بنوره إلا إذا فهمت نصوصه لفظاً ومعنى عن طريق تفسير واضح قائم على حقائقه المؤكدة التى تبين مقاصده ومرامييه بغير تأويل له يراد به غايات دنيوية أو منافع ذاتية، ولهذا عنى المسلمون بتفسير القرآن واهتموا بفهم حقائقه اهتماماً عظيماً على مدى العصور، ولا بد لنا قبل

[٣٣]

الكلام عن موضوع الاعجاز العلمى للقرآن أن نمهد ببندة موجزة عن التفسير ووسائله وأهدافه اتجاهاته المختلفة المنازع.

القرآن كتاب الله المبين

يقول الله تبارك وتعالى في وصف القرآن بأنه كتاب مبين في عدة آيات منها: (ألم، تلك آيات الكتاب المبين) (يوسف آية - ١) (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) (المائدة آية - ١٥) (ولقد أنزلنا إليكم آيات بينات) (النور آية - ٣٤) (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) (النحل آية - ٤٤). وهذه الآيات ومثيلاتها تبين بكل وضوح أن القرآن بين ولا يحتاج إلى تبين وقد نزل على العرب بلغتهم التى يعرفون ألفاظها وأساليبها وبلاغتها، وإذا كان في القرآن شئ مجمل أو شئ غامض المعنى فكان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يفسره، هذا مع العلم بأن كثيراً من الآيات القرآنية يفسر بعضها.

تفسير القرآن

التفسير علم من العلوم الدينية التى يقصد به إيضاح القرآن وتبينه للكشف عن مرامييه وأسراره، وقد وضع المفسرون له قديماً وحديثاً المؤلفات الكثيرة للشرح ألفاظه بما يتفق مع سياق المنهج القرآنى وإظهار المعانى التى وراء الالفاظ سواء فى ذلك المعانى الحقيقية أو المعانى المجازية، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الفرقان آية ٣٣: (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً)،

[٣٤]

وكان النبي صلوات الله وسلامه عليه أول مفسر للقرآن لأصحابه فيما يتعلق بالآيات التي تحتاج إلى تفصيل لما أجمل فيها من أحكام أو إيضاح لما غمض فيها من معان دقيقة.

ومع مرور الزمن صار التفسير علما ضروريا لفهم كتاب الله فهما صحيحا، وهو علم قائم ومدون منذ عهد التابعين للصحابه، ولا ريب أن القرآن مقصود بذاته لكل مسلم لوجوب تلاوته والتعبد به والاستماع إليه والتفقه فيه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، مع الاجتهاد في فهم الروابط التي تربط معانى القرآن بما ورد في السنة النبوية من أحاديث توضحها.

وقد تجمعت من مجهودات المفسرين للقرآن قديما وحديثا حصيلة ضخمة من شروح قيمة تدعو للاعجاب والتقدير لهؤلاء العلماء الاجلاء الذين خدموا كتاب الله بما لم يخدم به أى كتاب عرفه الناس في هذه الدنيا، فقد خدموه ظبطا وشرحا واستنباطا وتقديرا وإعازا وإكبارا على مدى أربعة عشر قرنا سوف تتلوها إن شاء الله قرون أخرى حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ومع كل هذه لدراسات والتفسيرات والشروح المستفيضة للقرآن فإنه ما يزال كنزا لا ينفد من العلوم الربانية المنطوية في ثناياه، والتي سوف تظهر رويدا رويدا مع التعمق في بحاره والغوص وراء جواهره ولآلئها المكتونة فيه، ويقول الله تعالى في سورة فصلت آية ٥٣: سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق.

مراحل التفسير ومناهجه

يمكن القول بأن علم التفسير مر بعدة مراحل كان لكل مرحلة منهاجها العلمي الموافق لاحوال الزمان والمكان للإنسان وعلى مبلغ تفتح القلوب واستنارة

[٣٥]

العقول التي استجابت لدولة العلم في تطورها واتساع آفاقها وازدهار ثمارها، وهذه المراحل هي:

أولا: مرحلة التفسير المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيا: مرحلة التفسير المأثور عن أقوال الصحابة وتلاميذهم من التابعين.

ثالثا: مرحلة التفسير المعتمد على اللغة لأنها أداة التعبير.

رابعا: مرحلة التفسير المعتمد على رأى التابعين وتأويلاتهم واجتهاداتهم.

خامسا: مرحلة التفسير العصري لبعض الآيات ذات المفاهيم العلمية أو التشريعية.

في ضوء العلوم الحديثة التي اتسع مجال أبحاثها وما زال يتسع يوما بعد يوم.

وإليك توضيحا لكل مرحلة منها: التفسير المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم: كان النبي صلوات الله وسلامه عليه هو المفسر الاول للقرآن وكان تفسيره شاملا لكل ما جاء فيه من عبادات ومعاملات ومعتقدات

وكل ما يتعلق بالمجتمع الانساني، ابتداء من الاسرة إلى الجماعة إلى الامة وعلاقة الحاكم بالمحكوم وعلاقة المسلمين بغيرهم من الامم في الحرب والسلم، وقد وردت عن النبي أحاديث صحيحة توضح وتفسر ما جاء في القرآن زيادة في الايضاح والبيان وهي الاحايث المتواترة بالسند الصحيح ولذلك كانت السنة النبوية خير مفسر للقرآن الكريم.

التفسير المأثور عن أقوال الصحابة وتلاميذهم والتابعين لهم: يعتمد هذا التفسير أولاً وقبل كل شئ على ما سمعه الصحابة من مفسره الاول وهو النبي صلى الله عليه وسلم، وقد حفظوا هذا التفسير ووعوه لانهم كانوا

[٣٦]

أول من سمع القرآن عقب نزوله والنبي يتلوه عليهم، وكانوا أول من علموا أسباب نزول كل آية ومناسباتها، وكان ذلك خير معين لهم على فهم المقصود من كل آية فهما صحيحا، وكانوا يعنون كل العناية بتفسير كل ما يتعلق بالامور الدينية من حيث العقائد والعبادات وأركان الاسلام وأصوله وأحكامه لان هذا في نظرهم هو جوهر الدين، وما كانوا يشغلون عقولهم بالحقائق الكونية وأسرارها ونواميسها ولا يفكرون في أمرها إلى بقدر ما تدل عليه في نظرهم من قدرة الله تعالى وعظمته، وما كانوا يهتمون بالقصص القرآني ولا الخوض في شئ من أخباره إلا بقدر ما أتى به القرآن ولا يتعدون نطاقه ولا يلتفتون إلى ما يقوله القصص الذين زادوا فيه كلاما دخيلا عليه من الاسرائيليات وخلافها.

التفسير القائم على اللغة ومعاجمها اللغوية: إن معرفة اللغة العربية هي بلا شك الاساس في فهم القرآن لان الالفاظ القرآنية في ذاتها هي الوعاء له وهي أداة التعبير عن معاني القرآن وأهدافه ولا يمكن الاستغناء عن معرفتها، ومعلوم أن القبائل العربية وقت نزول القرآن لم تكن موحدة اللغة أو اللهجة بل كانت لكل قبيلة ألفاظها وتعاييرها الخاصة بها في إطار اللغة العربية العام، وقد امتازت قبيلة قريش بأنها وسط بين هذه اللغات واللهجات ولذا أنزل القرآن بها لانها أقومها لسانا، وأعذبها بيانا، ولذلك كانت لغة القرآن هي أصح وأدق الاصول اللغوية والبيانية وصارت هي المقياس والميزان لكل ما يراد الاستشهاد على صحة عربيته. وقد اتجهت عناية المسلمين وغيرهم من المستشرقين إلى دراسة مفردات القرآن الكريم وشرحها ووضع المعاجم والفهارس لالفاظه الغريب منها وغير الغريب للدلالة على معانيها لان القرآن أتى بألفاظ جديدة لم تكن معروفة ولا مألوفة قبل

[٣٧]

الاسلام ولها مدلولات خاصة مثل كلمات الشرك والنفاق والصور والحشر والاعراف والصراف والعرش والكرسى وغيرها مما لا عهد للعرب بها، وقد وضع النبي معانيها بجلاء للصحابة وغيرهم، وقد استعمل القرآن ألفاظا من لغات أخرى مثل كلمات الجبت وحصب وأرائك وهي ألفاظ حبشية، وكلمات السجل

والسرايق وزنجبيل وهي ألفاظ معربة من الفارسية، وكلمات قسط والرقيم والدراهم وفردوس وهي كلمات رومية الاصل، وكلمات صلوات ولينا وفوم وهي من أصل عبري، وأمثال هذه الكلمات الغربية أصلاً والدخيلة على اللغة العربية لابد لها من معاجم تبين المقصود منها، هذا مع ملاحظة أن أمماً كثيرة غير عربية دخلت الاسلام وهي لا تعرف العربية كما أن عامة المسلمين الذين لم ينالوا قسطاً كافياً من الثقافة بحاجة شديدة إلى فهم معاني الالفاظ القرآنية من المعاجم اللغوية التي هي خير وسيلة لشرحها.

مرحلة التفسير بالرأى

وهو التفسير القائم على اجتهاد التابعين للصحابه ومن جاء بعدهم من العلماء الاتقياء ذوى الفطن وهم الذين اتخذوا من سعة علومهم باللغة والإمامهم بأصول الشريعة وفهمهم لروح الدعوة الاسلامية اتخذوا من ذلك وسيلة للتحصيل والتخريج واستنباط آراء وشروح مفصلة لقضايا وردت في القرآن بطريق الاشارة إليها أو الاجمال لها، وقد فتح ذلك باب التفكير والتدبر في آيات الله وعدم الاقتصار على ظواهرها وعلى آراء السلف فقط في تفسيرها بل حاولوا الاجتهاد والتعمق في فهمها واستخراج المعاني الدقيقة المنطوية عليها بحيث لا يخالف هذا الاجتهاد روح الشريعة وأهدافها.

وكان أول من استعمل رأية في التفسير الامام بن جرير الطبرى وذلك بعد

[٣٨]

استعراضه لمختلف التفاسير في زمنه وتمحيصها وترجيح بعضها على بعض وإيداء رأيه الخاص مستعينا في ذلك باللغة وأسرارها وبمعرفته لتقاليد العرب وآدابهم وثقافته الواسعة في فهم طبائع الاشياء، وقد سلك مسلكه الامام الزمخشري ومن جاء بعده ممن استعملوا عقولهم وخبراتهم وعلومهم في تفسيرهم القرآن، وكذلك فعل أئمة المذاهب الاربعة في تمحيص القرآن وفهمه واستنباط الاحكام منه.

وقد أجاز هذا التفسير بالرأى الامام الغزالي وغيره ما دام الرأى لا يخالف القرآن ولا يعارض السنة النبوية ويحقق ما أمر به الله في قوله تعالى في سورة محمد آية ٢٤: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟) وفى هذا تحريض على التدبر والتفكر في القرآن بقلوب مفتوحة وعقول مستنيرة غير مغلقة.

وأنه على الرغم من الدعوة إلى تعقل آيات الله والتعمق في معانيها إلا أن هناك من المحاذير ما يمنع بل يحرم تحريماً باتاً استعمال الرأى إذا كان هذا الرأى نابعا عن هوى شخصى في نفس المفسر ما يتنافى مع الشرع ويأباه العرف، أو كان رأياً صادراً عن تحميل الآيات ما لا تتحملة لاقرار مذهب معين يتعصب له المفسر ويقحمه إقحاماً لا مبرر له أصلاً في نصوص الآيات لان ذلك يفتح أمام القلوب المريضة المجالات للتهجم على القرآن بما لم ينزل به الله سلطاناً.

ولئن كان بعض العلماء أجاز التفسير بالرأى والتأويل استنادا إلى دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس بأن يفقهه الله في الدين ويعلمه التأويل إلا أن ذلك التوسع في التأويل قد فتح باب الشطط في التخييل والتصور وأوقع الكثير من المؤولين في مزلق خطيرة في فهم الآيات وتحميلها معانى بعيدة عنها ومن ذلك

[٣٩]

ما يفسر به الشيعة بعض الآيات على هواهم لاعتقادهم بأن للقرآن ظاهرا وباطنا وأن الباطن له عدة بواطن لا يعرفها حق المعرفة إلا الامام المعصوم الذي يعتقدون أنه يوحى إليه وأنه يسمع الكلام الموحى به ولكنه لا يرى من يكلمه.

ومن أمثلة تفاسيرهم وتأويلاتهم ما ورد مرويا عن الامام الباقر في شرح قوله تعالى: (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون، ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار) أنه فسر الحسنة بأنها هي معرفة الامام وحب آل البيت وأن السيئة هي إنكار الامام وبغض آل البيت، وكذلك ما روى عن جعفر الصادق في قوله: (فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) أنه فسرهما بأن أعمال الناس تعرض على الأئمة من آل البيت.

وقد كان هناك فريق من علماء المسلمين يستمعون إلى ما يقوله أهل الكتاب من اليهود والنصارى نقلا عن كتبهم المقدسة فيصدقونها ويعتمدون عليها في تفسيرهم للقرآن، والحقيقة أن كتب أهل الكتاب وتفسيرها قد دخلها التحريف والتغيير على يد رجال الدين السابقين الذين حرفوها ودسوا فيها ما ليس منها طعما في حطام الدنيا أو إرضاء للحكام كما أنها عندما ترجمت من لغاتها الأصلية إلى اللغات الأخرى فقدت الكثير من حقائقها ومعانيها الأصلية، وذلك علاوة على ما خالط تفسير هذه الكتب من أساطير وخرافات وإسرائيليات كان خليقا بعلماء المسلمين الذين اعتمدوا عليها ألا يركنوا إليها ويحشروها في تفاسيرهم وفاتهم أن المقصود من هذه الاسرائيليات هو الافتراء على الدين الاسلامى بما هو براء منه ونتج عن ذلك تحقيق ما أراده أعداء الاسلام من البلبلة والتضليل، ومن أمثلة ذلك ما جاء في تفسر الثعالبي وغيره. وكان الاخرى بالعلماء القدامى الذين عاشوا في العصور المضطربة إجتماعيا والمتأخرة عقليا أن يتنبهوا إلى ما جاء في كتاب الله من الحض على فهم القرآن

[٤٠]

والتدبر في الآيات ومعانيها بفكر قويم وعقل سليم غير متأثر بترهات أو فلسفات دخيلة على الاسلام من معتقدات الامم التي دخلت في الاسلام وخلطوا عقائدهم ومبادئهم الخاطئة ومفاهيمهم المنكرة في ساحة الاسلام النقية الخالية من الخرافات.

لماذا تتفاوت تفاسير القرآن

إن تراث التفاسير الذي خلفه السلف يختلف بعضه عن بعض في اتجاهاتها ومشاربها إختلافا واضحا، ومنشأ ذلك هو إختلاف مصادر الثقافة التي تأثر بها أصحاب هذه التفاسير، فمن غلبت عليه النزعة الدينية توسع في شرح العقيدة وأركان الاسلام، ومنهم من غلبت عليه الناحية اللغوية من بلاغة وبيان فأولى هذه الابحاث اهتمامه في تفسيره منهم من غلبت عليه النزعة الفقهية التشريعية فانصرف إلى استنباط الاحكام والقوانين الدينية في المعاملات والحقوق والواجبات ومنهم من تعلقت نفسه بالعبادة والتصوف والنظر إلى الحياة الدنيا يعين الزهد فيها والتأمل في تقلباتها والاعتبار بصرفها فاجتهد في تفسير الآيات على منهج الوعظ والتذكير بخشية الله والعمل على مرضاته والاخلاص في طاعته.

وبعض التفاسير القديمة مليئة بالكثير من الآراء التي لا تخلو من الخطأ والصواب والراجح منها والمرجوح والقوى والضعيف، كما أن بعض المفسرين قديمهم حديثهم لهم في تفسير الآيات آراء متعددة ومتشعبة، وقد تكون للآية الواحدة في نظرهم عدة وجوه مختلفة، وواجب المفسر في العصر الحديث أن يمحس ويقارن بين هذه الآراء ويكشف عن الآراء الضعيفة منها ليبين عوامل الضعف والخطأ فيها، وقد يقتضى الامر البحث عن رأى آخر أقرب للحق والصواب دون مجافاة أو معارضة لنصوص الدين ومنهجه ولا بأس من الاستعانة بكل ما هو صحيح تماما من القوانين العلمية.

[٤١]

وبدهى أن القرآن لم ينزل ليكون كتاب طبيعة أو كيمياء أو فلك أو طب أو تاريخ أو غير ذلك من مختلف العلوم بل هو كتاب هداية، لانه لو نزل مفصلا للنظريات العلمية الحديثة لما فهمه العرب الاميون وقتئذ، ولم يؤد القرآن رسالته التي نزل من أجلها وهي نزع الشرك والجهالة والضلال والشرو والفساد المتأصلة في النفوس، وقد كانت أكثر الآيات الملكية التي نزلت خلال ثلاث عشرة سنة تدعو بصفة عامة إلى التوحيد ومحاربة الشرك بأساليب الوعد والوعيد والترغيب والترهيب والتفقه في أصول الدين، ثم نزلت الآيات المدنية بعد ذلك لكي تمكن الايمان في القلوب وتدعو إلى أهداف أخرى تقوم على التشريع وتنظيم المجتمع وبث روح الاخوة والتعاون والحض على الجهاد في سبيل الله وغير ذلك من سياسة الجماعات والدول الرشيدة.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا وجه إليه أحد سؤالا عن أمور كونية أو مسائل طبيعية أو غير ذلك مما يستلزم الاجابة عليه الدخول في تفاصيل علمية فوق مستوى ثقافة عصره فإن الله سبحانه يوحى إلى رسوله بإجابات سديدة مبسطة تقبلها العقول قبولا حسنا، فمن ذلك مثلا قوله تعالى في سورة البقرة آية ١٨٩: يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج) وهكذا يأتى الجواب سهل الفهم كافيا للاقناع بأن إختلاف أوجه القمر هي لحكمة معرفة الاوقات وبخاصة مواقيت الشهور ومواعيد الحج التي تهتم السائلين.

وقد جاءت في بعض التفاسير القديمة آراء غير صحيحة وتأويلات خاطئة لا تقبلها العقول السليمة فكان لابد من معارضتها ودحضها بإعادة النظر في تفسيرها على وجهها الصحيح لان السكوت على ذلك وترك القديم على قدمه وخطأه هو نوع من الجمود والتخلف وحجر على العقول والقلوب المتفتحة لرؤية حقائق القرآن بنور العلم والايمان.

الاعجاز العلمي في آيات القرآن

يجب على المسلم ألا يختلط عليه الامر بين رسالتى الدين والعلم وألا ينظر إليهما على أنهما أمران مختلفان تجب المقارنة والمفاضلة بينهما بل هما في حقيقة أمرهما رسالتان متكاملتان، وكلاهما يساعدان على تثبيت الايمان في القلوب، لان العلم نور يهدى إلى الحق ما دام علما نافعا، والدين في جوهره هداية ربانية للعقول والقلوب ونفحات سماوية للارواح والنفوس.

ويجب على المسلم ألا تخدعه مظاهر التقدم العلمى المادى الذى برع فيه أهل أوروبا وأمريكا وبخاصة في علوم الذرة والتكنولوجيا وغزو الفضاء فهذه كلها ليست كل شئ لاسعاد البشرية وشقاء عللها، وإنما العلوم الدينية المستمدة من القرآن والسنة وأنباع هديها إلى جانب العلوم الدنيوية هى البلسم الواقى من العلل والشافى من أمراض النفوس.

والقرآن الكريم هو كلام الله سبحانه وتعالى، وكلامه جل جلاله صفة من صفاته التى تجلى بها على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فكانت تلك الآيات التى بهرت العقول بروعتها وأدخلت الايمان في القلوب بقدسيته وروحانيته، وبصدق حقائقها المطلق الذى لا يأنىها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وإن صدق اليقين الذى نزل به القرآن جعل لكلماته تأثيرا قويا لا تتال منه الايام، وبهذا يظل هدى القرآن على الدهر شبابا ناضرا دائما، وإعجازا متجددا لا ينقطع مدده وإلهامه للمؤمنين العاملين به.

ويكفى للدلالة على حيوية القرآن وقوة تأثيره أن من يسمعه بوعى أو يقرأه بتدبر لمبانيه ومعانيه أو يدرسه للوقوف على أسرارهِ يؤمن إيمانا عميقا أنه وحى السماء،

[٤٣]

وليس من كلام بشر، فهاهو عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد ما قرأ بعض آيات من القرآن في بيت أخته التى ذهب للانتقام منها لاسلامها نراه يتحول من مشرك عنيد وعدو لدود للاسلام والمسلمين يتحول إلى مؤمن قوى، ويسارع إلى مقابلة النبى حيث كان مجتمعا مع أتباعه المسلمين يعلمهم ويزكيهم في دار الارقم بن الارقم ويعلن له إسلامه وانضمامه إلى جماعة المسلمين بمكة، أسلم وهو يعلم ما سوف يلقيه من عشيرته وقومه من معارضة وإيذاء.

مفهوم العلم والعلماء قديما وحديثا: لقد صارت كلمة العلم مع تطور الزمن ذات مدلولين، فقديما كان مدلولها العلم القائم على العلوم الدينية وما يتفرع عنها من علوم التوحيد وعلم الفقه وعلم التفسير وعلم اللغة والبلاغة وعلم الحديث إلى غير ذلك من العلوم المتصلة بالدعوة الإسلامية وتاريخها وقرآنها وأحاديثها النبوية، وكان الدارسون لهذه العلوم هم العلماء والفقهاء وأهل العلم وقتئذ، وكانوا هم قادة الفكر والرأى والعلم قبل عصرنا هذا، ويقول الامام الغزالي في هذا الموضوع: إن العلم المقصود هو العلم بالله وصفاته وملائكته ورسله وملوكوت السماوات والارض وعجائب النفوس الانسانية والحيوانية من حيث أنها مرتبة بقدرة الله لا من حيث ذواتها لان المقصود الاقصى هو العلم بالله، وأما العمل فمقصود به أساسا مجاهدة الهوى حتى تزول الحوائل التي ربما أعاققت الانسان عن العلم بالله تعالى.

أما مدلول العلم حديثا فإنه يختلف عن المعنى القديم المشار إليه سابقا، إذ ظهر من وقت قريب جماعة تقول عن عصرنا الحاضر إنه عصر العلم والعمل ويقصدون بذلك أن العلم بمفهوم عصرنا هو العلم الطبيعي القائم على دراسة ما في الكون من مواد وعناصر وكائنات لها خصائصها الذاتية ونواميسها التي تحكمها من كيمياء

[٤٤]

وطبيعية وميكانيكا وغير ذلك من علوم الطب والرياضة والفلك وما يتضمنه ذلك من حقائق كونية، وأن العمل في إطار هذا المفهوم للعلم فهو تطبيق العلم عمليا بإستعمال الاجهزة والادوات والوسائل الاخرى الحديثة من مختبرات ومراسد وتجارب واستنباطات منطقية وغير ذلك: وفي ضوء هذين المدلولين للعلم يرى المفسرون العصريون لآيات القرآن أنه من الضروري أن يشتمل تفسيرهم الناحيتين الدينية والعلمية ودون الاكتفاء بناحية واحدة منهما.

تفسير القرآن في ضوء العلوم الحديثة

إن هذا النوع من التفسير لبعض الآيات الكونية والطبيعية وغيرها ذات الطابع العلمي منهج جديد ومحاولة موفقة إن شاء الله تعالى لاطهار ما في القرآن من إعجاز علمي أو تشريعي لم يعرفه المفسرون القدامى المعرفة التامة، ولم يكن ذلك عن إغفال لشأنها وإنما كان ذلك منهم لانهم نظروا إليها نظرة تأمل وإجلال وتقديس باعتبارها مظهر لقدرة الله العظيمة في خلق هذا الكون وروعة حكمته وتدبيره؟ لجميع ما فيه من كائنات ومخلوقات، ولكن عندما تقدم العلم واتسعت آفاقه مع تطور المدنية والحضارة أخذت أنظار العلماء تتجه إلى ما جاء به القرآن من حقائق علمية سبقت نهضة الانسان العلمية بعدة قرون.

فمن المعلوم أن القرآن نزل على النبي صلى الله عليه وسلم خلال القرن السادس الميلادي أي قبل عصر نهضة أوروبا التي بدأت طلائعها في القرن الرابع عشر الميلادي واستمرت في نمو وإزدهار وحققنت نتائج

قيمة من الكشوف العلمية في مختلف العلوم والفنون والآداب التي حررت العقول من الجهل والخرافات التي كانت سائدة ومسيطرّة في العصور الوسطى ومما يذكره التاريخ من قضايا هذا العصر الوسيط أنه قامت بين رجال الدين

[٤٥]

المسيحي وبين رجال العلم مخاصمات ومنازعات خطيرة في أمور علمية اعتبرها رجال الدين خروجاً على ما في الكتب المقدسة من نصوص لم يفهموها وحرفوها وغيروا وبدلوا فيها تبعاً لاهوائهم وتحقيقاً لمصالحهم ومنافعهم الخاصة.

ومن أمثلة هذه الخلافات ما قرره علماء الفلك بعد الدراسة والبحث الوثيق من أن الأرض ليست مركز الكون كما كان يعتقد رجال الدين الذين اعتبروا ذلك الرأي خروجاً على حرمة الدين فكفروا كل من اعتقد ذلك الرأي واضطهدوهم بل أهدروا دماءهم.

وإليك نموذجاً يوضح اختلاف التفسير قديماً وحديثاً وكيف أن إدراك المعاني للآيات يتفاوت من فهم إلى فهم ومن عصر إلى عصر كما في الآيات الآتية: قال الله تعالى في سورة ص آية - ٣١، ٣٢: (وهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردها على فطفق مسحاً بالسوق والاعناق) فقد فسرت هذه الآية الكريمة قديماً بأن سيدنا سليمان عليه السلام لما عرضت عليه الخيل في وقت صلاة العصر شغلته وألهته عن الصلاة فتملكه الغضب وأخذ يقطع سيقان هذه الخيول وأعناقها بالسيف.

وهذا التفسير يناقض ما جاء في الآية من أن سليمان عليه السلام كان نعم العبد الأواب فكيف يصدر عن نبي أتى عليه القرآن هذا الثناء أن يكون قاسياً إلى حد قتل الخيول البريئة التي هي عدة المؤمنين في قتال أعداء الدين والزود عن حياض الأوطان بغير ذنب جنته.

وقد فسرت الآيات بعد ذلك تفسيراً معقولاً أقرب إلى الواقع المفهوم وهو أن سليمان عليه السلام عرضت عليه بعد الظهر الخيل الأصيلة التي تسكن حين وقوفها

[٤٦]

وتسرع حين سيرها، فقال سليمان إني أشربت حب الخيل لأنها عدة الخير وهو الجهاد في سبيل الله وأن حبها نشأ عن ذكرى لربي، وما زال مشغولاً بعرضها حتى غابت عن ناظره، ثم إنه أمر بردها عليه ليتعرف أحوالها، فأخذ يمسح سوقها وأعناقها ترفقاً بها وحباً لها واستئناساً لها.

وبعد أن تقدم العلم كثيراً نجد أن الإنسان قد توصل في مجال الطب البيطري إلى أن ما فعله سيدنا سليمان عليه السلام كان هو الأسلوب الأمثل في معاملة الحيوانات واستئناسها بإدخال الطمأنينة والهدوء عليها بأن

يربت على رؤوسها ورقابها وظهورها عندما يريد فحصها أو استخدامها، ومن ذلك يتضح ما بين التفسيرين من فرق شاسع.

القرآن يهدي القلوب التي تتدبره وتنير العقول التي تتفهمه

لقد آمن بالاسلام وبالقرآن أفراد وجماعات كثيرة من غير المسلمين، وكان إسلامهم نتيجة تأثير القرآن في نفوسهم بطريق مباشر أو غير مباشر، فأما عن تأثيره المباشر فقد اعترفت به أفراد من علماء أوروبا ذوي الالباب والفطر السليمة ممن سمعوا القرآن أو قرأوه وفهموا بعض أسرارهِ وإعجازه، ومن أمثلة ذلك ما فهمه أحد الأطباء من قوله تعالى في سورة النساء آية - ٥٦: كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) فأدرك أن وراء هذه الآية حقيقة علمية ما كانت معلومة للناس وقت نزول القرآن، وأنه لابد أن يكون من كلام عليم خبير بتركيب جسم الانسان، وبشبكة الاعصاب الدقيقة التي تنتشر أطرافها في الطبقة الجلدية وهي التي نستقبل الاحساس بالحرارة والبرودة والالم والراحة.

فهم ذلك الطبيب من الآية أن تجدد الالم الذي انقطع بحرق الجلد لا يكون

[٤٧]

إلا بإعادة الجلد حيا كما كان لكي يتجدد ألمه مرارا وتكرارا كلما تبدل الجلد في كل مرة بعد حرقه، وتأكد الطبيب بأن هذا الكلام لا يصدر إلا من عالم خبير بتركيب الجسم البشري ووظيفة الاعصاب المنتشرة في كيانه، وأن هذا الكلام نزل منذ قرون بعيدة على لسان نبي أمي لم يدرس علم الطب ولا التشريح فأيقن أن هذا كلام من أرسل محمدا رسولا فأمن به وأسلم.

ومثل آخر لربان بحرى كان يجول البحار ويشاهد أحوالها ومظاهرها ليلا ونهارا وما تتعرض له عن عواصف وسحب وأمواج متلاطمة ورياح عاتية وظلمات وغير ذلك مما كابده خلال سنين عمله في البحار والمحيطات، فإنه لما قرأ في سورة النور آية - ٤٠ قوله تعالى: (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها) قال في نفسه إن أحدا لا يستطيع أن يصف هذا الوصف الدقيق لاحوال البحار وظواهرها الجوية إلا من كان بحارا شق عباب الماء وعابن تقلبات الاحوال فيه، وأن محمدا الذي نزل عليه هذا الكلام لم يكن في يوم من أيامه بحارا كما أنه لم يركب البحر في حياته وعاش في وسط الصحراء البعيدة كل البعد عن عالم البحار فمن أين له هذه المعلومات الدقيقة التي لا يعرفها سوى الملاحون؟ إنه ولا شك كلام عليم خبير وهو الله سبحانه فأمن وأسلم بأن محمدا رسول الله حقا وصدقا.

وهناك شعوب أسلمت وآمنت بالقرآن بطريق غير مباشر ومن أمثلة هؤلاء سكان إندونيسيا وما حولها وسكان شرق قارة أفريقية ووسطها حيث نزل بساحتهم التجار العرب المسلمون الذين ذهبوا إلى هذه

الجهات النائية للتجار وتعاملوا مع أهلها معاملة كلها الصدق والامانة والوفاء ومكارم الاخلاق فراعته هذه الاخلاق السامية والمبادئ العالية التي كانوا عليها وعلّموا أن مزاياهم الجميلة هذه هي من

[٤٨]

أثر القرآن وتعاليم الاسلام التي أكسبتهم هذه الفضائل والمكارم وصاغتهم هذه الصياغة الكريمة التي لا مثيل لها فيمن عرفوا من الناس فأمنوا بالاسلام ديناً وبالقرآن معجزة لرسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه. بمثل هذه الآيات السالفة الذكر وآثارها في العقول والنفوس كان إيمان كثير من المسيحيين وغيرهم من الملل الاخرى من ذوى الالباب والفتن الذين ما كانوا يعرفون معنى الاعجاز البياني أو البلاغى في لغة القرآن وإنما عرفوا منه الاعجاز العلمى الذى وجدوه في كثير من الآيات العلمية مثل قوله تعالى: (خلق الانسان من علق) (يخرج الميت من الحى ويخرج الحى من الميت) (وجعلنا الرياح لواقح) (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) (إن من شئ إلا يسبح بحمده) (والسماوات ذات الحكب) (لا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) وفى هذا ما يؤكد أن الكون هو كتاب الله الصامت، وأن القرآن هو كتاب الله الناطق بما يدل على علم الله بأسراره).

وهذه الآيات وأمثالها لم يفهمها السلف الصالح على وجهها العلمى وإنما رأوا فيها دلائل على قدرة الله تعالى وعظمته، وأنها شاهدة على أنه سبحانه بديع السماوات والارض، ولا شك أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتعرض في

[٤٩]

تفسيره لمثل هذه الآيات من الناحية العلمية التفصيلية التي هي فوق مستوى عقولهم فقد أمر الله نبيه أن يخاطب الناس على قدر عقولهم.

وقبل الكلام عن الاعجاز العلمى للقرآن يجب أن نعرف أن المعجزة هي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد النبى تأييداً لنبوته، ومعجزات القرآن كثيرة ومتنوعة كان أبرزها عند نزولها الاعجاز البيانى الذى تحدى به العرب أهل الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بشئ من مثله فعجزوا، وللقرآن إعجازات أخرى منها الاعجاز العلمى والاعجاز التشريعى والسياسى والحربى والنفسى وكلها شاهدة على روعة القرآن وعظمته وقديسيته وأنه كلام الله الحق.

وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز مطلقاً أن نخضع القرآن للتفسير العلمى لان من نظريات العلم ما يتغير ويتطور ولا يثبت على حال، وإذا اختلفت النظرة العلمية في وقت من الاوقات مع الآية القرآنية فيرجع ذلك إلى أن العلم الذى يتطور من وقت لآخر لم يصل بعد إلى مستوى مفهوم الآية، والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) أى أن ما لم يتفق مع الآية القرآنية من النظريات العلمية فإنه سوف يظهر مستقبلاً بعد طول الدرس والبحث والتفتيح لان كلام الله لا يأتيه الباطل من بين

يديه ولا من خلفه، ثم أنه سبحانه يقول عن القرآن: (ثم إن علينا بيانه) أى أنه سوف يشرحه ويبين أسرارهِ في مستقبل الاعصر والدهور.

[٥٠]

مقارنة بين بعض ما جاء به القرآن وبين ما في الكتب السماوية الاخرى: إن القرآن الكريم فيه من العلوم والمعارف والمبادئ والآداب أضعاف أضعاف ما جاء في الكتب المقدسة السابقة، فالعهد القديم مثلاً كان أكثر الكتب السماوية تتاولاً للناحية العلمية قبل القرآن، ونجد أنه لم يتعرض إلا لثلاثة موضوعات فقط بإيجاز وهى: خلق الارض وخلق ما عليها من كائنات وبعض سير الانبياء من لدن آدم عليه السلام إلى أنبياء بنى إسرائيل فقط، وكان تتاوله لهذه الموضوعات محدوداً، أما القرآن فقد تناول الحقائق الكونية وما يدور حولها من مظاهر ثم ما يتعلق بقصص الانبياء بصورة أصح وأدق بكثير عما جاء في الكتب السماوية الاخرى، كما أنه رسم الطريق الصحيح للبحث العلمى عن طريق النظر والتدبر والتأمل واستعمال الفكر القويم في فهم القرآن.

وعلى سبيل المثال ما ورد في التوراة عن نبي الله سليمان عليه السلام كان شيئاً يحط من قدره ويصفه بأنه حاد عن طريق الايمان باستخدام الجن، واعتبرت خوارق المعجزات التى ظهرت على يديه من قبيل السحر، ولكن القرآن الكريم نفى عنه هذه التهم الباطلة نفياً باتاً بقوله تعالى في سورة البقرة آية - ١٠٢: (وما كفر سليمان، ولكن الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه؟ فلا تكفر) وشتان بين ما جاء به القرآن عن نبي معصوم وبين ما جاء في التوراة كتاب العهد القديم من قدح وذم في نبي كريم. وفيما يلى طائفة من الآيات القرآنية ذات المدلولات العلمية التى لا شك مطلقاً في توافق العلم معها توافقاً تاماً لا تناقض فيه لاثبات الاعجاز العلمى في آيات القرآن، وقد أتبع في عرض هذه الآيات الخطوات الآتية:

[٥١]

أولاً: ذكر الآية ومكانها من القرآن الكريم.

ثانياً: التفسير الدينى الوارد في كثير من التفاسير المعتمدة لرجال الدين.

ثالثاً: التفسير بالرأى العلمى المطابق لحدث ما وصل إليه العلماء من نظريات صحيحة متفقة مع القرآن.

رابعاً: عرض مبسط لبعض مبادئ العلوم المتصلة بالآيات بأسهل أسلوب يفهمه القارئ العادى إذا لزم الامر ذلك لزيادة التأكيد بين صلة العلم بالقرآن.

ويجب ألا يغيب عن البال مطلقاً أن الله سبحانه وهو خالق السماوات والارض وما فيهن هو الذى أنزل القرآن مبيناً فيه علمه القديم بكل حقائقه وأسرارهِ وأحكامه وظواهره وخوافيه، ويكفى للدلالة على ذلك قوله

تعالى في سورة الحج آية - ٧: (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماوات والارض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير).

وقد قلت في كتابي: (مع الله) في باب (كلام الله) بأسلوب الشعر المنثور ما يأتي: كلما سمعنا كلام الله يتلى حق تلاوته اهتزت منا النفوس تأثرا بروح معانيه وسمت بنا الروح تعرج إلى ملكوت الله متطلعة إلى الملا الأعلى ومغانيه.

وكأننا كلما سمعناه يتلى بخشوع نسمع جديدا من الوحي يسمو ويعلو في مراميه وكأن هذا الجديد منطلق لا يقف عند حد في قلوب السامعين المستغرقين فيه وهذا لون من الاعجاز لا تجده في غيره أبداً لأنه لا شيء من القول يدانيه فأى كلام هذا الذي كلما تلوناه ووعيناه وجدناه أعمق وأوسع من مبانيه أنه كلام الله الحق، وكفاه شرفاً أنه تنزيل من رب العالمين ولا ريب فيه.

والقرآن كلام الله القدسي والكتاب العلوي الذي أودعه الله أخبار الغابرين وجعل في قصصه مواعظ حسنة ودروساً قيمة وكلها ذكرى للذاكرين

[٥٢]

وما فرط الله في القرآن من شيء يصلح شأن العباد في دنياهم والدين وقد دامت آياته الباهرة تتلى وهي تتألق بأنوارها في قلوب المؤمنين وقد سبقت علومه مستحدثات العلم والعلماء ولم يكونوا لها سابقين لان القرآن أتى بكليات العلوم دون تفصيل لها لأنه كتاب شرع ودين لقد ظن البعض أن معجزة القرآن في بلاغته وفاتهم أنه كنز من العلم ثمين.

وقد أنزل الله في القرآن كل ما تحتاج إليه البشرية من دستور عالمي رشيد ووضح فيه بأسلوب عذب ما يسعد وما يشقى وما يضر الناس وما يفيد وحذر العباد من فتنة الدنيا وزينتها، وخوفهم من هول يوم القيامة الشديد وبين لهم فيه طرق الهدى بيانا يقبله العقل ولا حاجه بعده إلى مزيد فهو كتاب الله الذي يتمشى مع الفطرة السليمة وأنه عنها لا يحيد وهو بهذه الحقيقة يغزو القلوب التي آمنت به طوعاً بغير ترهيب أو تهديد لأنه كلام مشرق بنور الحق لا غموض فيه أبداً وفيه إقناع ومنطق سديد.

الباب الثالث: العلوم الكونية في القرآن

قال تعالى: قل انظروا ماذا في السماوات والارض [سورة يونس آية - ١٠١]

عرض القرآن الكريم الكثير من الحقائق الكونية ولكنه عندما يعرض أى قضية من قضايا الكون العلمية لا يعرضها بأساليب البشر باستعمال المقدمات والدلائل والمعادلات واستنباط النتائج وإنما يقدمها بالإشارة أو الرمز أو المجاز أو الاستعارة أو بالعبارات التي تومض في العقل بنور روحى باهر، إنه سبحانه ينزل آيات قد لا يدرك معناها أو يفهم حقائقها وأسرارها في وقتها كل المعاصرين لنزولها لان العلم بقوانين الكون كان

محدود الآفاق وقتئذ، ولكنه سبحانه يعلم أن المستقبل سوف يأتي بشرح لهذه الآيات في ضوء علوم عصورها، ومصدق ذلك قوله تعالى: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق). وتدل الدلائل على أن العلماء الذين درسوا الآيات الكونية في القرن فيما بعد وطبقوها على ما وصل إليه العلم في زمانهم في الفلك أو الطب أو الطبيعة أو الكيمياء أو الاحياء وغيرها من العلوم وجدوا تطابقا وتوافقا علميا رائعا أكد لهم أن القرآن كتاب الله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. لذلك كان علماء الفلك وعلماء الطب أكثر الناس إيمانا بعظمة الخالق المبدع وأسبقهم إقرارا بألوهيته لما رأوه رأى العين من أن القرآن الكريم الذي نزل على نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه منذ أربعة عشر قرنا من الزمان كان هو نهاية العلم الذي يصلون إليه كلما جد جديد في بحثهم، وهذا هو العلم الذي

[٥٥]

جاء به النبي الامي محمد الذي لم يكن هو ولا قومه ولا عصره يعرف شيئا من فلك أو جيولوجيا أو كيمياء أو طب أو غير ذلك.

وقد أدرك الناس مكانة العلم في القرآن الذي هو دستور الاسلام، من أن أول ما نزل من وحى السماء على النبي صلى الله عليه وسلم هو قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق) ثم إنه سبحانه أقسم بأداة العلم وهي القلم في قوله تعالى: (ن والقلم وما يسطرون) فدين الاسلام وكتابه هو كنز العلوم التي حثنا القرآن في آياته مرارا على النظر إلى صنع الله في مخلوقاته والتأمل فيها والتفكير في خواصها وأسرارها والعلم بها. وإنه من الخطأ أن يتوهم الواهمون بأن العلم هو ما أتى به أهل الغرب، أو أنه علم العصور الذي يتطور من حين إلى حين، إذ الحقيقة أن علوم الدين الاسلامي هي نهاية العلم، وقد ثبت أن مبادئه وشرائعه منذ نزلت وإلى أن يرث الله الارض ومن عليها هي خير المبادئ والشرائع لكل زمان ومكان. وأن الاسلام دين واحد لا يتعدد في نظمه ولا يتطور في أصوله، وليس هناك إسلام قديم يناسب عصره وإسلام جديد يتفق مع أهواء البشر وتقلباتهم.

ويجب أن يؤمن كل مسلم بأن ما يجد في عصرنا من إدراك علمي لآيات القرآن ليس معناه أن حقائق القرآن تغيرت أو تطورت في ذاتها، وإنما الذي يتغير ويتطور هو عقل الانسان الذي يتسع إذا استنار وفكره إذا استقام مع كثرة البحث والدرس والتجريب فيبدو له القرآن على حقيقته الاصلية الخالدة.

لمحة في كوكبنا الارضى

جاءت في القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن السماء والارض والنجوم والشمس والقمر، وعن ظاهرات اختلاف الليل والنهار وجريان الشمس وتكون السحب ونزول الامطار وكذلك ذكرت ما يوجد على الارض

من جبال وأنهار ونبات وأشجار وحيوان وحشرات، كما وردت آيات تبين خلق الانسان وسلالته وما يتعلق بحياته وجهاده وسعادته أو شقائه وذكرته غير ذلك كثيرا من شتى المخلوقات التي أوجدها الله في ملكه وحثنا على مشاهدتها والتدبر في روائعها.

وقد اهتدى الانسان بما وهبه الله من ملكات واستعدادات عقلية أن يعرف الكثير عن عالمنا الذي نعيش فيه واستطاع أن يكشف لنا عن أن الكرة الارضية لبثت زهاء عشرين مليوناً من القرون بلا حياة ولا أحياء تدب عليها، وذلك خلال الازمنة والحقب الجيولوجية وقبل ظهور الحياة عليها.

ولم يكن هناك على سطح الكرة الارضية وقتئذ سوى الصخور والمياه ولا شئ غير ذلك وفي تلك الازمنة السحيقة أخذت العوامل الجوية والحركات والاضطرابات الباطنية تفتت الصخور ويترسب فتاتها على هيئة طبقات رسوبية يستقر بعضها فوق بعض على قيعان البحار والمحيطات كما تنتظم الصحف في الكتب ورقة فوق أخرى.

وبعد هذا النوم العميق في حياة الكرة الارضية بدأت معالم الحياة ومواكبها تظهر في صور بدائية من عوالم الحشرات والنباتات والأشجار والغابات، وتغير وجه الأرض مراراً وصار عاليها سافلها تحت تأثير العوامل الجوية والحركات الباطنية فكانت الكائنات الحية من نبات وحيوان تنطم في باطن الأرض،

[٥٧]

وتترك آثارها فيه كما كانت عليه من حجم وهيئة وكيان في حياتها، وهذه هي الحفريات التي يعثر عليها علماء الجيولوجيا في بحثهم ودراستهم لطبقات الأرض، وهم يشبهون الصخور الرسوبية وما فيها من حفريات بأنها السطور التي كتبتها الأرض في سجل تاريخها الطويل الحافل بتطوراتها وتقلباتها، وهذا هو سفر التاريخ الأعظم الذي ما يزال علم الجيولوجيا يستمد منه الحقائق تلو الحقائق مع كل حفر وتعمق في البحث لأظهار معالم الحياة والأحياء في عهدها القديمة جداً، وهي عهود لها أزمان تقدر بالآلاف الملايين من السنين ولا يعرف مددها إلا الله الأزلي الذي لا أول له ولا آخر.

الكون كتاب مفتوح لكل قارئ له ومتدبر فيه

إن الأرض التي يعيش عليها الانسان وغيره من المخلوقات هي جزء ضئيل جداً في ملكوت الله، بل هي ذرة أول أو أقل في عالم الاكوان الذي هو مجموعات هائلة من مجرات هائلة ونجوم لا حصر لعددها ولا نهاية لامتدادها خلقها الله سبحانه بقدرته وإرادته، وأوجد فيها أنواعاً شتى من مخلوقاته، ودبر أموراً تدبيرا محكما قائماً على العدل والرحمة والاحسان والاتقان لانه جل جلاله لم يخلقها عبثاً بل أوجدها لحكمة عليا أرادها هي معرفة عباده له وواجب عبادته وحده.

وقد شاءت إرادة الله أن يجعل هذا الكون العجيب كتابا مفتوحا يقرأه كل من يتأمله ويتدبره بعين العقل والفكر والوجدان ليتضح أماما بصيرته ما فيه من روعة وجمال وبهاء وما أودعه الله في نظامه الدقيق من قوانين ونواميس تحكمة وتنظمه، وقد اجتهد في قراءة صفح هذا الكتاب الكوني علماء مفكرون وباحثون ملهمون وخبراء متخصصون استطاعوا مع طول الدرس والبحث أن يكشفوا في عصورنا الحديثة عن كثير من أسرار الكون في ضوء

[٥٨]

العلوم التي وضعوا قواعدها في الطب والفلك والرياضيات والكيمياء والجيولوجيا والهندسة والتكنولوجيا وعلوم الانسان والحيوان والنبات والحشرات وغير ذلك من مختلف العلوم التي هدى الله بها الانسان أن يتعلم ما لم يعلم من علم الله الواسع في ملكوت السموات والارض.

وقد نزل في كثير من آيات القرآن إشارات إلى العلوم الكونية وغيرها مما تمكن الانسان بواسطتها أن يصل إلى معرفة قوانينها وقواعدها ونظرياتها بعد نزول القرآن بعدة قرون، وكان من فضل الله على الناس أنه وجه أنظارهم إلى الكون ليدرّسوه ويتعرفوا على ما جاء في الآيات القرآنية عن حقائق عنه، وقد استطاع أولو الالباب من العلماء أن يلمسوا الصلة الوثيقة بين ما أوحى به القرآن من قبل وما كشف عنه العلم من بعد وما تأكد من سبق القرآن بأكثر من أربعة عشر قرنا بهذه المعلومات عن الكون وما فيه وأنها في جوهرها تتفق مع العلم الحديث الصحيح في معظم نظرياته التي انتهت من إقرارها بعد ثبوتها.

وفيما يلي عرض لمختلف الآيات الكونية وغيرها، وكل آية منها مفسرة أولا تفسيرا يتفق مع وجهة نظر علماء الدين، وثانيا مفسرة تفسيرا عصريا يتمشى مع الآراء العلمية التي ثبتت صحتها، وزيادة في توثيق الصلة بين النص القرآني والعلوم الحديثة وتوافقهما أضفت فقرات موجزة لبعض النظريات العلمية المؤيدة للقرآن مع شرح مبسط لها.

آيات قرآنية مع تفسير لها قديما وحديثا عن نشأة الكون

قال الله تعالى في سورة فصلت آية - ١١: (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللارض إئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين، ففصاهن سبع سماوات في يومين) تفسير علماء الدين: ثم عمد سبحانه إلى خلق السماء وهي على هيئة دخان فوجدت، ثم إن خلقه للسموات والارض - على وفق إرادته - هين عليه بمنزلة ما يقال للشئ احضر - راضيا أو كارها فيطيع وأتم خلق السماوات سبعا في يومين آخرين.

النظرة العلمية: يقول العلم إن للقصود بكلمه دخان في الآية السديم وهو السحب الكونية أو المجرات التي نشأت فيها السماء والارض، والسموات السبع التي يرد ذكرها في كثير من الآيات هي على أرجح الأقوال الكواكب السبع السيارة المعروفة، وأن اليومين المذكورين في الآية هما في رأى الجيولوجيا الزمнин الذين

استغرق كل منهما ملايين السنين لتكوين هذه السماوات، وأحد هذين الزمنين انقضى وقت أن كانت الأرض مرتوفة أى متصلد بالسديم، والآخر بعد أن انفثقت الأرض أى انفصلت عن السديم، وإليك وصفا علميا للمجرات.

المجرات (الصدف) المجرات جمع مجرة وهى كما يفسرها العلم سحابة ضخمة من غازات ومواد صلبة وعناصر أخرى مختلفة تتحرك بسرعة داخلها، وهى تتجاذب فيما بينها،

[٦٠]

وقد أطلق عليها علماء الفلك من العرب اسم المجرة لأنها تشبه النهر الجارى، وقوام الكون المرئى يربو حتى الآن على ألف مليون مجرة تظهر على الألواح الفوتوغرافية التى يستخدمها العلماء لتصويرها، أما الكون غير المرئى فلا يعلمه إلا الله الذى وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم وتتبع المجرات بعضها عن بعض بسرعة هائلة فيتسع تبعاً لذلك حجم الكون وتتولد فيه مجرات جديدة من الغازات الكونية بنفس الطريقة التى تكونت بها المجرات القديمة وهذا ما يطلق عليه العلماء نظرية تمدد الكون مصداقاً لقوله تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) والكرة الأرضية موجودة فى إحدى هذه المجرات المعروفة باسم طريق التبانة لأنها تشبهه منظر التبن عندما يتبعثر على الطريق، والكرة الأرضية هى إحدى أفراد المجموعة الشمسية التى سيأتى الكلام عنها فيما بعد.

معنى السماء

ترد كلمة السماء والسماوات مرارا وتكرارا فى القرآن، وإليك بيانا وتعريفا علميا عنها: يفسر العلم السماء بأنها الكرة الكونية الجامعة لكل الأفلاك والنجوم فى مجرتنا أى حدود عالمنا المادى، وهذا يوافق تفسير الامام محمد عبده إذ يقول: السماء إسم لما علاك وارتفع فوق رأسك، وأنت إنما تتصور عند سماعك لفظ اسماء هذا الكون الذى فوقك، وفيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجرى فى مسالكها وتتحرك فى مداراتها، وهذا هو السماء، وقد بناه الله أى رفعه وجعل كل كوكب منه لبنة من بناء سقف فيه أو جدران تحيط به، وقد تجاذبت هذه الكواكب السيارة بعضها إلى بعض برباط الجاذبية العامة كما تربط أجزاء البناء

[٦١]

الواحد بما يوضع بينها من مواد تتماسك بها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن السماء تدل على الفراغ اللانهائى فى الكون والذى لا يمكن أن يكون خلوا لا يشغله شئ بل يملأه وسط غير مادى اسمه الاثير وفي هذا الوسط غير المادى تنتقل الطاقات غير المادية مثل موجات اللاسلكى أو الراديو والرادار والضوء والحرارة، ويطلق على هذه الطاقات اسم أمواج الاثير. وقال تعالى فى سورة الانبياء آية - ٣٠: (أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا).

تفسير علماء الدين: أو لم يعلم الذين كفروا بمحمد عليه السلام وبالقرآن أن السماوات والارض كانتا رتقا لم تنزل منها قطرة من مطر، ولم ينبت على الارض شئ من النبات ملتزقا بعضها على بعض ففرقناهما عن بعض بالمطر والنبات؟ ويقول تفسير آخر: أعمى الذين كفروا ولم يبصروا أن السماوات والارض كانتا في بدء خلقهما ملتصقتين بقدرتنا ثم فصلنا كلا منهما عن الاخرى.

النظرة العلمية: يتفق نص هذه الآية مع أحدث النظريات في نشأة الارض والسما والفضاء وذلك أنهما كانتا في أول أمرهما ملتصقتين داخل السديم الذي يحتويهما، ثم إنهما انفصلتا نتيجة انفجارات شديدة حدثت داخل السديم وتم الانفتاح المذكور في الآية بعد أن كانتا مرتوقيتين أى متصلتين ببعضها ببعض وفي ذلك إشارة لما حدث في الكون من انفجارات انتشرت بسببها مادة الكون فيما حولها من فضاء وفراغ انتهت بتكوين مختلف أجرام السماء المختلفة.

[٦٢]

وقال تعالى في سورة الواقعة آية - ٧٥، ٧٦: (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه قسم لو تعلمون عظيم). تفسير علماء الدين: فأقسم حقا بمساقط النجوم عند غروبها آخر الليل وهى أوقات التهجد والاستغفار وأنه لقسم - لو تفكرون في مدلوله - عظيم الخطر بعيد الاثر.

النظرة العلمية: يقسم المولى تبارك وتعالى بمواقع النجوم لان القسم بمواقعها يوجه الانتباه إلى أن المسافات بين النجوم تبلغ حدودا لا يتصورها الخيال فمثلا نجد أن أقرب نجم إلينا في مجرتنا وهى الشمس تبعد عنا بمقدار ٥٠٠ ثانية ضوئية بينما النجم الذى يليها في القرب يبعد عنا بمقدار أربع سنوات ضوئية تقريبا، والسنة الضوئية تدل على مدى المسافة التى يقطعها الضوء في سنة كاملة علما بأن سرعد الضوء تساوى ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية، ثم إن هناك مدولا علميا آخر عن مواقع النجوم وهى أن موقع الشمس موقع بالغ الدقة في وضعه لكى تستقيم معه الحياة على كوكبنا الارضى، لانها لو تقدمت عن موضعها الاحالى لاحتترقت الارض من شدة حرارتها ولو تأخرت عن موضعها لبردت الارض وتجمدت فيها البحار والمحيطات وتصير غير صالحة لحياة البشر عليها.

ويلى هذه الآية قول الله: (أنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون) وهذا القسم للاشادة بشأن القرآن وأنه كثير المنافع وأنه محفوظ في لوح مصون لا يطلع عليه غير المقربين من الملائكة.

[٦٣]

وقوله تعالى في سورة الرحمن آية - ١٩، ٢٠: (مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان، فبأى آلاء ربكما تكذبان؟).

تفسير علماء الدين: أرسل الله البحرين العذب والملح يتجاوران وتتماس سطوحهما وبينهما حاجز من قدرة الله لا يطغى أحدهما على الآخر فيمتزجان، وقد ذهب بعض المفسرين القدماء في تفسير هذه الآية إلى القول

بأن المقصود بالبحرين الانهار والبحار ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا، فبأى نعمة من نعم ربكما تجدان؟.

النظرة العلمية: تشير هذه الآية إلى نعمة الله على عباده وهى عدم اختلاط مياه البحار المتجاورة بل جعل بينهما قانونا ثابتا يحكم فيهما العلاقة بينهما من حيث الكثافة والملوحة وما فيهما من أحياء مائية كأن بين كل بحر وآخر حاجزا غير ظاهر للعيان لم تقمه يد الانسان ولكن أقامته يد الرحمن ومن عجائب قدرة الله تعالى أنه جعل ماء النهر لا يؤثر في ماء البحر فيغير ملوحته كما لا يؤثر ماء البحر في ماء النهر لان النهر الذى يصب في البحر يكون عادة في مستوى أعلى من مستوى سطح البحر، وتدل المشاهدة على أن مياه نهر الامزون الذى يصب في المحيط الاطلسي تندفع مسافة ٢٠٠ ميل في المحيط حافظة لعذوبتها طول هذه المسافة، وفي الخليج العربى نجد عيوننا من الماء العذب تفيض داخل ماء الخليج الملح بماء عذب.

[٦٤]

وقال تعالى في سورة الطارق آية - ١١ : ١٢: والسماء ذات الارجع والارض ذات الصدع (إنه لقول فصل وما هو بالهزل).

تفسير علماء الدين: أقسم بالسماء ذات المطر الذى يعود ويتكرر على الارض ذات الانشقاق عن النبات الذى يخرج منها، إن القرآن فاصل بين الحق والباطل، وليس فيه شائبة من لهو ولعب بل هو الحق لا مرية فيه. النظرة العلمية: يتجلى إعجاز القرآن في كلماته الحقة التى تنطوى على معان دقيقة وتحمل علما إلهيا لا علما بشريا، ففى قوله تعالى والسماء ذات الارجع أى أنها ترجع وتعيد لارض ما يصعد من بحارها ومحيطاتها من بخار الماء الذى يتجمع مكونا سحباً ثم يتكاثف ويسقط الامطار الغزيرة على الارض كما أقسم سبحانه بالارض ذات الصدع أى التى تتصدع وتتشقق ليخرج منها النبات بعد ارتوائها بماء المطر، كما أنها أيضا ذات الصدوع التى تكونت في باطنها وصارت مكامن تتفجر منها مواد الغاز الطبيعى والبتروى وينابيع المياه الكبريتية وكأنها تعيد لنا ما انطوى في باطنها من النبات بعد تحوله وتحلله إلى مواد أخرى.

وقال تعالى في سورة النبأ آية ٦: (ألم نجعل الارض مهذا والجبال أوتادا).

تفسير علماء الدين: ألم نجعل الارض مهادا أى فراشا ومناما، والجبال أوتادا لها لكى لا تميد بهم

[٦٥]

النظرة العلمية: تمكن الانسان بوسائله العلمية المختلفة أن يثبت أن الجزء الصلب من القشرة الارضية يبلغ سمكه ٦٠ كيلومترا، وأن بعض هذه القشرة يرتفع مكونا الجبال وينخفض بعضها ليكون قيعان البحار والمحيطات، وأن وجود الجبال على سطح الكرة الارضية موزعة بدقة وحكمة يساعد على التوازن بين

المرتفعات والمنخفضات بحيث لا تميد الأرض ولا تضطرب، فكأن هذه الجبال تعمل عمل الاوتاد التي تحفظ توازن الخيمة واستقرارها.

وهناك حقيقة علمية أخرى وصل إليها البحث العلمي في توزيع الجبال واليابس والماء على سطح الأرض بنسب أحجامها الحالية علاوة على التوازن بحيث لا تميد الأرض ولا تحيد عن موضعها، وهي أنه لو كانت الأرض بحجمها الحالي مكونة من الماء بنسبة أكبر لبلغ وزنها أقل مما هي عليه الآن ولما تمكنت من حفظ نسبة بعدها عن الشمس بل لانجذبت إليها واحترقت ولو كان أكثرها مكونا من اليابس لزداد وزنها عما هي عليه الآن ولبعدت عن الشمس البعد الذي لا تتحقق معه الحياة لأنها في هذه الحالة تتجمد من شدة البرودة. وقال تعالى في سورة آل عمران آية - ١٣٧: (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين).

تفسير علماء الدين: قد مضت من قبلكم أيها المؤمنون سنن الله في الأمم المكذبة بإمهالهم ثم أخذهم الله بذنوبهم فتأملوا عواقبهم.

[٦٦]

النظرة العلمية: يقرر العلم أنه يكفي لتحصيل العلم قراءته ودراسته بل يختط لنا منها عمليا للطول إلى العلم الصحيح هو منهج (السير والنظر) ففي السير مشاهد مختلفة يراها السائر، وفي تأملها تبدو له ملاحظات هامة يجمعها ثم يستقرئها ليستنبط منها القوانين العامة التي تربط بعضها وهذا هو المنهج الاستقرائي الذي توصل إليه بكون أحد العلماء الانجليز بعد نزول القرآن بألف سنة.

وقال تعالى في سورة هود آية - ٧: (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا).

تفسير علماء الدين: والله خلق السماوات والأرض وما فيهما في ستة أيام، ومن قبل ذلك لم يكن في الوجود أكثر من عالم الماء ومن فوقه عرش الله، وقد خلق الله هذا الكون ليظهر بالاختبار أحوالكم وأعمالكم ويعلم من يقبل على الله بالطاعة ومن يعرض عن ذلك.

النظرة العلمية: ترد كلمة العرش في اللغة بمعنى سرير الملك، ورب العرش هو الله جل جلاله الذي وسع كرسيه السماوات والأرض جميعا، وتعني كلمة السماء كل ما أظلك وعلاك، وتشمل طبقات الهواء الذي تقل كثافته تدريجا كلما علونا حتى تصل هذه

[٦٧]

الطبقات العليا إلى مناطق الفراغ الكوني والفضاء اللانهائي حيث تسبح النجوم والكواكب في أفلاكها بنظام دقيق طبقا لقانون الجاذبية، وتوضح هذه الآية الكريمة ما توصلت إليه النظريات الحديثة عن نشأة الأرض، وخلاصتها أن أرضنا كانت جزءا متصلا بجرم الشمس ثم انفصلت وابتعدت عنها تبأثير عوامل خارجية

طارئة عليها، وبعد انفصالها صارت كرة ملتهبة بداخلها مواد منصهرة لشدة حرارتها، وتحيط بها طبقات كثيفة من غازات وأبخرة أخذت تشع حرارتها الشديدة في الفضاء وتبرد شيئاً فشيئاً، واقتربت برودتها بانكماشها وتغضن في سطحها أى بارتفاع أجزاء منها وانخفاض أخرى، وهبوط المواد الثقيلة من عناصرها إلى مركز الأرض الباطنى وطفو المواد الخفيفة منها حول قشرتها، وقد استغرقت برودة قشرة الأرض ملايين سنين التى عبر عنها القرآن بستة يام، وأيام الله لا يعلم مدى مدتها وأزمانها إلا الله سبحانه وتعالى لأنها تحسب بملايين السنين وفي خلال الزمن الطويل الذى استغرقت برودة القشرة الأرضية تكاثرت فوقها كتل كثيفة من الغازات والابخرة، مكونة سحباً مترامكة سميكة ظللت الأرض بظلمات جو قائم يتخلله برق ورعد وانهمار للمطر بكميات هائلة من المياه التى غمرت سطح الأرض وغمرت جميع المنخفضات في الأرض وكونت البحار والمحيطات، كما أنها نسربت إلى الفجوات والانكسارات والشقوق داخل الأرض مكونة بها المياه الجوفية، وقد استمر انهمار المطار بدون انقطاع حتى زاد وعلا التلال والهضاب والجبال وغطاها كلها ولم يبق ظاهراً على وجه الأرض سوى عالم الماء ولا شئ غيره يحيط بالكرة الأرضية من جميع أقطارها، ومعنى ذلك أن الأرض قبل أن تقوم عليها الحياة بصورتها الحاضرة من يابس وماء ونبات وحيوان كانت عالماً واحداً فقط من الماء يمتد تحت عرش الله المسيطر والمهيمن بسلطانه على الأكوان كلها.

[٦٨]

وهذا يذكرنا بكل جلاء ووضوح معنى الآيات التى فيها تسأل يلفت النظر إلى قدرة الله عظمتة وحكمته وإرادته في ملكه بقوله تعالى: (أعنتم أشد خلقاً أم السماء بناها، رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم). فسبحانه من إله قادر مقتدر خلق فسوى وقدر فهدى وأمرنا بالتفكير والتدبر في مخلوقاته ومصنوعاته كما يقول تعالى في سورة العنكبوت آية - ٢٠: (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة، إن الله على كل شئ قدير)) وها هو القرآن يدعونا إلى التفكير في بدء الخلق منذ أن تصلبت قشرة الأرض الخارجية وتكونت عليها القارات والمحيطات لذلك اجتهد علماء الجيولوجيا أن يقرأوا تاريخ الأرض من طبقات الصخور الرسوبية التى تراكت عليها وفى طياتها الكثير من بقايا الكائنات الحية التى عاشت عليها سواء كانت لحيوان أو نبات وهذه البقايا المتحجرة هى ما نسميه اليوم بالحفريات، وهى في واقعها سجل حافل بتاريخ الخليقة منذ بدايتها، وقد استطاع العلم بوسائله المتقدمة أن يقرأ كثيراً من صفحات هذا السجل ويعرف حقائق كثيرة عن نشأة الأرض وتطوراتها خلال الأزمنة الجيولوجية.

وقال تعالى في سورة البقرة آية - ٢٩: (هو الذى خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شئ عليم).

[٦٩]

تفسير علماء الدين: إن الله هو الذى تفضل عليكم بأن خلق لمنفعتكم وفائدتكم كل النعم الموجودة في الارض، ثم توجهت إرادته إلى السماء فجعل منها سبع سماوات فيها ما ترون وما لا ترون والله محيط بكل شئ.

النظرة العلمية: جاء في تفسير علماء الفلك لهذه الآية أنه يصح أن يراد بالسموات السبع مدارات الكواكب السيارة التى تدور حول الشمس، ويصح أن يراد بها الطبقات المختلفة لما يحيط بالارض، ذلك أن الله تعالى بعد أن أكمل تكوين الارض ودبت الحياة على سطحها وجعل حولها أجواء من طبقات أودع فيها وسائل لوقايتها من أهوال الفضاء الذى يرسل باشعاعات مهلكة وتتهاوى فيه شهب ونيازك مدمرة، وهذه الطبقات لم تعرف خواصها إلا في العصور الحديثة فأنى لمحمد النبى الامى العلم بها؟ وقال تعالى في سورة الانبياء آية - ٣٢: (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون).

تفسير علماء الدين: وجعلنا السماء فوقهم كالسقف المرفوع، وحفظناها أن تقع، أو يقع ما فيها عليهم، وهم مع ذلك منصرفون عن النظر والاعتبار بآياتنا الدالة على قدرتنا وحكمتنا ورحمتنا.

[٧٠]

النظرة العلمية: تقرر هذه الآية الكريمة أن السماوات وما فيها من أجرام حافظة لكيانها ومتماسكة فيما بينها ولا خلل يعتورها ومحفوظة من أن تقع على الارض، هي كل ما علانا وهي تبدأ بالغلاف الهوائى الذى يحمى أهل الارض من كثير من أهوال الفضاء التى لا تستقيم معها الحياة بأى حال، مثل الشهب والنيازك والاشعة الكونية وفوق الارض الغلاف الهوائى الذى تحتفظ به الارض بقوة الجاذبية ولا سبيل إلى فقده في خضم الفضاء المتناهى، وفوق الغلاف الهوائى أجرام السماء على أبعاد مختلفة وتدور دوراتها المنتظمة في أفلاكها منذ أن خلقها الله تعالى.

قانون الجاذبية

توجد في الكون نظم لها قوانين لا تتبدل ولا تتغير منذ الازل ومن أول هذه القوانين قانون الجاذبية الذى يعمل على تجميع شتات الاجزاء المادية المتقاربة في أبعاد دقيقة محددة، ولولا قوة هذا القانون لسقطت الكائنات في هاوية الفضاء، ويتركز ثقل الارض في مركز تكورها أى أن الارض تجذب الاجسام التى عليها نحوه، وقد اكتشف هذا القانون نيوتن العالم الانجليزى الذى لاحظ يوما أن تفاحة سقطت من شجرتها على الارض فأخذ يفكر في سبب سقوطها إلى أن وصل إلى قانون الجاذبية الذى يثبت أن كل جسم مادي يجذب غيره من الاجسام المادية بقوة تزيد أو تنقص حسب الكتلة والمسافة بينهما، كما يدل على ذلك علم الديناميكا، وهذا هو القانون الذى يربط الاجرام السماوية ويحفظ تماسكها وانتظامها في مداراتها.

[٧١]

وقال تعالى في سورة الفرقان آية - ٦١: (تبارك الذى جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا).

تفسير علماء الدين: تعالى الرحمن وتزايد فضله، أنشأ الكواكب في السماوات وجعل لها منازل تسير فيها وجعل من الكواكب الشمس سراجا مضيئا وقمرا منيرا.

النظرة العلمية: يرى سكان الارض نجوم السماء على هيئة مجموعات تكاد تحتفظ بصورها على مر الاجيال، والبروج هي تلك المجموعات من الاجرام التى تمر أمامها الشمس أثناء دورانها الظاهري من حول الارض، فالبروج كأنها منازل الشمس في دورانها أثناء السنة.

وكل ثلاثة منها تؤلف فصلا من فصول السنة، وعدد هذه البروج اثني عشر وهى: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوث، وفي قوله تعالى في وصف الشمس أنها سراج اشارة إلى أنها مصدر الطاقة الحرارية نظرا للتفاعلات الذرية في داخلها، والاشعاع الشمسى المنبعث من هذه الطاقة يسقط على الكواكب والارض والاقمار وسائر اجرام السماء غير المضيئة، أما القمر فينير بضياء الشمس المرتد على سطحه.

وقال تعالى في سورة يس آية - ٣٨: (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم).

[٧٢]

تفسير علماء الدين: إن الشمس تجرى ليلا ونهار لغاية محددة لها وإلى مستقر قدره الله لها زمانا ومكانا وذلك تدبير الله الغالب بقدرته والمحيط علما بكل شئ.

النظرة العلمية: يقرر علم الفلك بأن الشمس لها مجموعة من الكواكب والاقمار والمذنبات تتبعها دائما وتخضع لقوة جاذبيتها وتجعلها تدور من حولها في مدارات متتابعة ببيضاوية الشكل، وجميع أفراد هذه المجموعة تنتقل مع الشمس خلال حركتها الذاتية، والخلاصة أن المجموعة الشمسية تجرى في الفضاء بسرعة محدودة وفي اتجاه محدود، وتبلغ هذه السرعة حوالى ٧٠٠ كيلومتر في الثانية، وتتم دورتها حول المركز في مدى ٢٠٠ مليون سنة ضوئية، ولم يتوصل علماء الفلك إلى معرفة هذه الحركة واتجاهها إلا في أوائل القرن العشرين فأين هذا من وقت نزول القرآن حيث لم يكن محمد النبى الامى ولا قومه يعرفون شيئا من ذلك.

وقال تعالى في سورة الرحمن آية ٣٣ - ٣٥: (يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان قبأى آلاء ربكما تكذبان، يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران).

تفسير علماء الدين: يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تخرجوا من جوانب السماوات والارض هاربين فأخرجوا، لا تستطيعون الخروج إلا بعوة وقهر، ولن يكون لكم ذلك،

[٧٣]

فبأى نعمة من نعم ربكما تكذبان؟ يصب عليكما لهب من نار ونحاس مذاب فلا تقدران على دفع العذاب النظرة العلمية: قد يتوهم العامة من أهل عصرنا هذا عصر غزو الفضاء أن الانسان قد حقق أعظم اتجاز علمي وعملی بالصعود إلى القمر وأنه تمكن بفضل مخترعاته وأجهزته أن يسير فوق سطح القمر، وأن يحضر معه في عودته عينات من صخوره وترابه لتحليلها والتعرف على عناصرها، وظن بعض البسطاء والجهلاء بآيات القرآن أن الانسان بعمله هذا قد تمكن من النفاذ إلى أقطار السماوات وأنه حقق هذا النفاذ بسلطان العلم، والحقيقة أن هذا الزعم لا أساس له مطلقا من الصحة لان كلمة سلطان التي أولها المتأولون خطأ بمعنى سلطان العلم إنما هي في حقيقة الامر سلطان الله سبحانه وهو السلطان الآلهي الذي نفذ بقوته النبي صلى الله عليه وسلم إلى أقطار السماوات ليلة معراجہ، لانه هو السلطان القاهر على إخضاع سنيين الكون وقوانينه لارادة الله تعالى.

ويرى العلم الحديث في هذه القضية أن القمر الذي وصل إليه الانسان بقوة صواريخه إنما هو جرم صغير تابع للارض، وكأنما هو ضاحية قريبة من ضواحيها إذا لا يبعد عنها بأكثر من ٢٤٠٠٠٠ كيلومتر، فأين هذا البعد من أقطار السماوات التي يبلغ أبعاد القريب منها عن الارض بألف سنة ضوئية، مع العلم بأن الضوء يسير بسرعد ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية فكم من الكيلومترات يقطع الضوء في الدقيقة ثم في الساعة ثم في اليوم ثم في الشهر ثم في السنة أنه يقطع في السند مسافات لا تقدر بأرقامنا الحسابية وإنما هي أرقام فلكية خيالية.

ولنضرب مثلا يبين لنا استحالة الوصول إلى هذه الاقطار السحيقة أننا لو أردنا

[٧٤]

الوصول إلى الشمس وهي أقرب النجوم إلى الارض واستخدمنا قطارا من قطر السكة الحديدية وجعلناه يسير بسرعة ٦٠ كيلو مترا في الساعد ليلا ونهارا بدون انقطاع لوصل إليها بعد ٣٠٠ سنة، فما يالك بمدة الزمن اللازم للوصول إلى نجم يبعد عن الارض بألف سنة ضوئية.

المجموعة الشمسية

الشمس والارض والقمر والنجوم والكواكب والشهب ألفاظ جاءت في القرآن كثيرا، فالشمس ذكرت ٣٣ مرة، والارض ذكرت ٤٦١ مرة، والقمر ذكر ٢٧ مرة، وهذه الاجرام السماوية هي وحدات من المجموعة

الشمسية التي هي المجموعة الوحيدة من بين آلاف المجموعات التي يتألف منها الكون والتي يمكن القول بأننا نعرف عنها بعض الحقائق لاننا نعيش فيها.

وتتكون المجموعة الشمسية من نجم عظيم يشغل مركزها وهو الشمس، ومن عشر كواكب سيارة تدور حول هذا النجم في اتجاه واحد من الغرب إلى الشرق وفي مستوى واحد، وكأنها كرات مختلفة الاحجام تطفو فوق الماء، وهذه الكواكب هي: عطارد والزهرة والارض والمريخ والكويكبات والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون وبلوتو، وتختلف أحجام هذه الكواكب، وإن أكبرها حجما هو المشتري الذي يقع في مركز متوسط بينها، أما بقية الكواكب فإن أحجامها تتدرج في الصغر كلما بعدت عنه في كلا جانبيه، وبعض هذه الكواكب أقمار تابعة لها تدور حولها، وللارض قمر واحد يدور حولها، وإليك تعريفات موجزة عن بعض أفراد المجموعة الشمسية وهما الشمس والقمر:

[٧٥]

الشمس: نجم عظم الحجم يبلغ حجمه بالنسبة لحجم الارض ١٣٠٥ ، ٠٠٠ مرة وتصدر منه الحرارة والضوء، وتندلع في بعض نواحيه ألسنة من اللهب تمتد آلاف الكيلومترات في الفضاء، وتدور الشمس حول محورها كما تدور الارض حول محورها، وتكمل الشمس دورتها في ٢٦ يوما وقد تمكن العلماء من تحديد هذه المدة بملاحظة دورة البقع الشمسية وهي المعروفة باسم الكلف الشمسي على سطحها، وينبعث من هذه البقع غازات وأعاصير يمكن تسجيلها عن طريق التحليل الطيفي، لمعرفة عناصرها، وتبلغ درجة حرارة الشمس عند سطحها ٦٠٠٠ درجة مئوية ولكنها في مركزها الباطني تربي على ١٥ مليون درجة، ورغم أن الشمس تدور حول نفسها، فإنها ليست ثابتة في مكان واحد بل إنها تسير في الفضاء وتسير معها أسرتها تتبعها وهي تجرى لمستقر لها.

القمر: تابع للارض يدور حولها مرة في كل شهر قمرى، والارض تدور في نفس الوقت حول شمس، وتبلغ سرعة القمر أثناء دورته حول الارض ٣٣٠٠ ميلا في الساعة، وتبلغ كتلة الارض ٨٠ مرة قدر كتلة القمر، ويبعد القمر عن الارض بمقدار ٢٤٠٠٠٠ كيلومتر، ويستخدم الرادار في قياس أبعاد الاجرام السماوية القريبة فقط: مثل القمر وذلك بمعرفة الزمن الذي تقطعه الموجة اللاسلكية في الذهاب إلى القمر والعودة منه، ويدور القمر حول محوره ببطئ شديد، ولذا كان يومه أطول من يومنا كثيرا، فيستغرق كل من الليل والنهار أسبوعين، أى أن الشهر القمري نصفه نهار على وجه من القمر، ونصفه ليل على وجهه المقابل، ولذا تصل الحرارة في النصف المقابل للشمس حوالى ١٣٠ درجة مئوية، بينما تهبط أثناء الليل في النصف الآخر إلى حوالى ١٥٠ درجة مئوية تحت الصفر.

لقد جاء حديث القرآن عن الكائنات التي أبدعتها يد قدره مناسبة لجميع الناس على اختلاف درجات عقولهم وأفهامهم فكان لهم من ظاهره معان واضحة سهلة تصور لهم روعة صنعة الخالق كما يشاهدونها أمامهم، وتبين لهم ما فيها من آيات القدرة العظيمة المبدعة ودلائل العلم الواسع المحيط بكل شيء والموجه للعقول إلى فهم رحمة الله ومبلغ لطفه بعباده لكي يتعرفوا منها بالتعقل والتبصر على خالق الخلق وجلال ذاته وكمال صفاته إذ الصنعة دليل ساطع على قدرة الصانع وإبداعه.

ولكن المتأملين في حديث القرآن من أهل العلم والخبرة بالكائنات يرون في ألفاظ القرآن وعباراته أنها فوق معانيها الظاهرة وأن لها معان دقيقة تتطوى على أصول وجوامع من العلم الواسع الدقيق الذي لم يكن معروفا للناس من قبل ولم يتعرفوا عليه إلا بعد انتشار العلم الحديث بينهم في القرنين الأخيرين، وانكشفت هذا المعاني للمتأملين من أصحاب العقول الراجحة في ضوء علومهم الخاصة إما من صريح النص القرآني أو من إشارات ورموز لها.

وقال تعالى: في سورة يس آية - ٣٩: " والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم " تفسير علماء الدين: والقمر جعلنا له منازل كمنازل الشمس، وهو يزيد وينقص حتى يصير كالعنق للقوس أو السبابة اليابسة إذا حال عليها الحول وجفت.

[٧٧]

النظرة العلمية: دلت الدراسات الفلكية على أن القمر يدور حول نفسه، وفي نفس الوقت يطوف حول الأرض مرة واحدة في كل شهر، ولا يظهر لنا من القمر مدة دورته هذه سوى وجه واحد هو الوجه المواجه للأرض، أما جهة الآخر فلم ولن يراه سكان الأرض، وتعرف دورته هذه بالشهر القمري، وفي كل يوم من هذا الشهر يبدو لنا القمر بأوجه مختلفة، ففي أول الشهر يكون في المحاق لانمحاق نوره أي اختفائه ثم يكون بعد سبعة أيام في التربيع الأول، ثم يكون بدرا في وسط الشهر ثم يكون في التربيع الثاني بعد الأسبوع الثالث، ثم يكون في المحاق آخر الشهر وهكذا دواليك، وبذلك يعرف الناس المواقيت.

وتعبير القرآن بالعرجون القديم الذي لا خضرة فيه ولا ماء ولا حياة هو تشبيه علمي يمثل لنا حالة القمر الواقعية بأنه لا خضرة فيه ولا ماء ولا حياة، وقد تحقق ذلك فعلا بعد أن تمكن الإنسان أخيرا من النزول على سطح القمر والسير فوقه ومشاهدة معالمه المقفرة، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير.

وقال الله تعالى في سورة يس آية ٤٠: (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون).

تفسير علماء الدين: إن الشمس لا يصلح لها أن تطلع في سلطان القمر فيذهب ضوءه، ولا الليل

[٧٨]

يطلع في سلطان النهار فيذهب ضوءه بل إن الشمس والقمر والنجوم كل منها في أفلاكها تدور ولا تخرج عنها.

وتفسيرا آخر يقول: لا الشمس يتأتى لها أن تخرج على نواميسها فتلحق القمر وتدخل في مداره ولا الليل يتأتى له أن يغلّب النهار ويحول دون مجيئه بل هما متعاقبان وكل الاجرام السماوية تسبح في أفلاك لا تخرج عنها.

النظرة العلمية: يثبت العلم الحديث أنه لا يمكن أن تدرك الشمس القمر ولا يمكن أن يتلاقيا لأن كلا منهما يجرى في مدار مواز للآخر فيستحيل أن يتقابلا لأن الخططين المتوازيين لا يتلاقيان أبداً، كما يستحيل أن يسبق الليل النهار لأن ذلك يتطلب من الأرض أن تدور عكس اتجاهها الطبيعي الذي هو من الغرب إلى الشرق، وهو أمر مخالف لناموس الكون والله سبحانه يقول في كتابه العزيز: (إنا كل شيء خلقناه بقدر). وقال تعالى في سورة يونس آية - ٥: (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون).

تفسير علماء الدين: إن ربكم هو الذي جعل الشمس تشع بالضياء وجعل القمر يرسل النور، وجعل للقمر منازل ينتقل فيها فيختلف نوره تبعاً لهذه المنازل لتسعينوا بهذا

[٧٩]

في تقدير موافقكم وتعلموا عدد السنين والحساب، وما خلق الله ذلك إلا بالحكمة وهو سبحانه يبسط في كتابه الآيات الدالة على ألوهيته وكمال قدرته لكي تتدبروها بعقولكم وتستجيبيوا لما يقتضيه العلم.

النظرة العلمية: كشفت هذه الآية الكريمة عن حقائق لم تكن معروفة للناس قبل نزولها، كشفت عن أن الشمس نجم تنبعث منه حرارة وضوء كما هو شأن سائر النجوم التي هي أجرام ملتهبة ومضيئة في آن واحد، وأن القمر كوكب أي جسم بارد مظلم يستمد ضوءه وحرارته من الشمس، وأن القمر يتحرك في مداره مرة في كل شهر بتوقيت دقيق يعرف منه عدد الايام وحسابها في الشهور والاعوام فلولاً هذه الحركة المنتظمة ما عرف الانسان وقته ولا كيف يحسب الشهور والاعوام.

فهل كل هذا النظام الدقيق والتدابير المحكمة يحدث عبثاً واعتباطاً وبلا غاية؟ كلا ! إنه تقدير العزيز الحكيم الذي أراده رحمة بمخلوقاته وكائناته التي جعل الأرض مستقراً لها ومجالاً لنشاطها.

وقال الله تعالى في سورة يونس آية - ٦ (إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض آيات لقوم يتقنون).

تفسير علماء الدين: إن في تعاقب الليل والنهار واختلافهما بالزيادة والنقصان وفي خلق السماوات

[٨٠]

والارض وما فيهما من الكائنات لادلة واضحة وحججا بينة على ألوهية الخالق وقدرته لمن يتجنبون غضبه ويخافون عذابه.

النظرة العلمية: يقرر العلم الحديث أن طول كل من الليل والنهار يختلف باستمرار على مدار السنة، وأن هذا الاختلاف في التوقيت يرجع إلى دوران الارض حول الشمس وحول محورها المائل على مداره بمقدار 23° و 1° مما يجعل الليل يطول أو يقصر بحسب تعامد الشمس على المكان أو ميلها عنه، وهذه حقائق كونية تكون في حكم البدهيات لمن يدرس مبادئ الجغرافيا.

وقال تعالى في سورة الرعد آية ٤١: (أو لم يروا أنا نأتى الارض ننقصها من أطرافها؟ والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب).

تفسير علماء الدين: إن الارض التى استولى عليها الكافرون يأخذها منهم المؤمنون جزءا بعد جزء وبذلك تنقص عليهم الارض من حولهم، والله وحده هو الذى يحكم بالنصر أو الهزيمة وبالثواب أو العقاب ولا راد لحكمه، وحسابه سريع في وقته فلا يحتاج حكمه إلى وقت طويل لان عنده علم كل شئ.

النظرة العلمية: تحتل هذه في تفسيرها علميا أنها تطابق ما وصل إليه علماء الفلك من أن الكرة لارضية تقاطحت عند القطبين وانبعجت عند خط الاستواء بسبب

[٨١]

سرعة دورانها حول نفسها التى تبلغ سرعتها نحو ألف ميل في الساعة وأن جزئيات من الغازات والعناصر المحيطة بوسط الكرة الارضية تنطلق بقوة الطرد المركزية إلى الخارج حول خط الاستواء مما يساعد على الانبعاج أى زيادة في شكلها عند خط الاستواء ونقص في طرفي القطبين.

وقال تعالى في سورة النمل آية - ٨٨: (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شئ إنه خبير بما تفعلون).

تفسير علماء الدين: إنك يا محمد ترى الجبال وقت النفخة الاولى تحسبها جامدة ساكنة مستقرة وهى تمر في الهواء مر السحب صنع الله الذى أتقن كل شئ من الخلق وأنه خبير بما تفعلون من الخير والشر (ومعنى ذلك في رأيهم أن حركة الجبال هذه لا تكون إلا يوم القيامة فقط).

النظرة العلمية يقرر العلم الحديث أن الكرة الارضية منذ نشأتها تدور حول نفسها باستمرار أمام الشمس مرة في كل يوم، وأنها تدور مرة كل سنة حول الشمس، شأنها في ذلك شأن جميع الاجرام السماوية التى تسبح في أفلاكها بانتظام، وعلى ذلك فكل ما على الارض من جبال وبحار وغلاف جوى كلها تشترك مع الارض في دورتها اليومية حول محورها ودورتها السنوية حول الشمس مع ملاحظة أن كلمة تحسب الواردة في الآية بمعنى تظن لا تتفق مطلقا مع ثبوت كل شئ يوم القيامة الذى

[٨٢]

لا شئ فيه سوى اليقين الذى لا شك فيه، ولا ظنون بأى حال من الاحوال، والذى لا شك فيه أن الارض متحركة حول نفسها وحول الشمس في وقت واحد وليست ثابتة لانها لو كانت ثابتة لما حدث الليل والنهار ولما حدثت الفصول الاربعة.

وقال تعالى في سورة الفرقان آية - ٤٥، ٤٦: (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا).

تفسير علماء الدين: أنظر إلى صنع ربك كيف بسط الظل بعد طلوع الفجر وقبل طلوع الشمس من المشرق إلى المغرب ولو شاء لتركه دائما ثم جعل الشمس تزيل منه بما يحل محله من أشعتها فكانت الشمس دالة عليه ولولاها ما عرف الظل، ولو شاء الله لجعل الظل ساكنا مطبقا على الناس فتفوت مصالحهم ومراقبتهم. النظرة العلمية: في هذه الآية دليل قوى على دوران الارض حول نفسها، وأن هذا الدوران ضرورى للكائنات الحية فوق الارض لانها لو كانت غير متحركة لسكن الظل ولم يتغير طولاً أو قصراً، ولظلت أشعة الشمس مسلطة على نصف الكرة الارضية باستمرار، بينما يظل النصف الآخر ليلاً دائماً وهذا ما يسبب اختلافا كبيرا في التوازن الحرارى على الارض ويؤدى ذلك إلى هلاك البشر من شدة الحرارة أو من شدة البرودة، والله سبحانه قد جعل نسخ الظل بالشمس تدريجيا وبمقدار، ولم يجعله دفعة واحدة وفي ذلك منافع للناس تحفظ عليهم نظام حياتهم ونشاطهم.

[٨٣]

وقال الله تعالى في سورة الزمر آية - ٥: (خلق السماوات والارض بالحق، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار).

تفسير علماء الدين: يقول المفسرون الاوائل إن الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والارض متلبسة بالحق والصواب على ناموس ثابت يلف الليل على النهار، ويلف النهار على الليل على صورة الكرة وذلك الشمس والقمر لارادته ومصلحة عبادهم وكل منهما يسير في فلكه إلى وقت محدود عنده وهو يوم القيامة.

النظرة العلمية تدل الآية على شيئين هما كروية الارض ودورانها حول نفسها لان معنى التكوير هو لف الشئ على الشئ على سبيل التتابع أى الدوران كما تدل على أن كلا من الشمس والقمر يجرى أى يتحرك في مداره وأن لكل حركة زمنا محددا فالقمر له حركته الشهرية وللشمس حركتها حول نفسها ثم حركتها في مسارها وقد ثبت ذلك بالمشاهدة وبالوسائل والاجهزة الفلكية ويرى العلماء أن للشمس نهاية عندما تستنفد وقودها الذرى ولا يكون ذلك إلا عند فناء الكون حسب تقدير الله وتدبيره لانه سبحانه قدر كل شئ تقديرا.

وقال تعالى في سورة النازعات آية ٣٠: (والارض بعد ذلك دحاها)

[٨٤]

تفسير علماء الدين: والارض بعد ذلك بسطها على الماء ومهدا لسكنى الناس.

النظرة العلمية: توضح المعاجم اللغوية أن كلمة دحاها تؤدي معنى أنه جعلها كالدحية أى كالبيضة لان الاحوة معناها بيضة النعام أو مكان بيض النعام ويكون عادة مستدير الشكل، ولا شك أن هذا يطابق شكل الارض الحقيقي الذى تدل عليه البراهين النظرية والعملية، كما تؤكد الصور التى سجلتها آلات التصوير أثناء رحلات الاقمار الصناعية في الفضاء، ولفظ دحا يدل على شيئين هما البسط مع الاتساع والتكوير في التكوين، وهذه روعة في التعبير عن أن الارض التى نراها أمامنا في الظاهر مبسطة فسيحة الأرجاء هى في واقع الامر مستديرة كالبيضة، وهذا تقدير العزيز الحكيم الذى أتقن كل شئ خلقه.

والانسان في سيره على سطح الارض لا يزيد في حجمه عن نملة ضئيلة جدا تتحرك فوق منطاد ضخمة جدا ولا ترى حولها غير استواء طريقها عليه ولا ترى أى انحناء أو استدارة أينما كانت فوقه.

وقال الله تعالى في سورة البقرة آية - ٢٢: (الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون).

تفسير علماء الدين: إن الله وحده هو الذى مهد لكم الارض وبسط رقعتها ليسهل عليكم

[٨٥]

الاقامة فيها والانتفاع بهما، وجعل ما فوقكم من السماء وأجرامها وكواكبها كالبنيان المشيد وأمدكم بالماء الذى هو سبب الحياة والنعمة أنزله عليكم من السماء فجعله سببا في إخراج النبات والاشجار المثمرة التى رزقكم بفوائدها فلا يصح مع هذا أن تتصوروا أن الله نظراء تعبدهم لانه ليس له مثل ولا شريك، وأنتم بفطرتكم الاصلية تعلمون أنه لا مثل له ولا شريك فلا تتحرفوا عن ذلك.

النظرة العلمية: يرى العلم الحديث أن موضع الاعجاز في هذه الآية قوله تعالى والسماء بناها، فقد أثبت العلم بما لا يقبل الشك أن السماء في معناها الواقعي والطبيعي هى كل ما يحيط بالارض من جميع أقطارها ابتداء من الغلاف الجوى الذى يرتفع بنحو ثلاثمائة كيلومتر فوق سطح الارض وكأنه بحر من الهواء حول الكرة الارضية ثم إنه بعد هذا الغلاف الجوى يوجد فراغ كونى تسبح فيه ملايين الاجرام السماوية في أعماقه السحيقة وهى تتجاذب فيما بينها وتتحرك في تماسك واتزان في طبقة بعد طبقة وكأنها البناء المحكم، أو كأنها السقف المبني فوق الارض، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقال تعالى في سورة الانبياء آية ٣٠: (وجعلنا من الماء كل شئ حى أفلا يؤمنون).

تفسير علماء الدين: فسرهم المفسرون السابقون بأن الله خلق جميع الاحياء من ماء الذكر والانثى، وأن كل شئ من الكائنات الحية يحتاج إلى الماء في حياته، أفلا يؤمن أهل مكة بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن؟

[٨٦]

النظرة العلمية: يقرر العلم الحديث في تفسير هذه الآية الكريمة أن الماء يدخل في بناء أى جسم حى إذ هو في الحقيقة قوام حياته، فالماء في نظر العلم هو المكون الاصلى في تركيب مادة الخلية، والخلية هى وحدة البناء في كل شئ حى نباتا كان أو حيوانا، كما أن علم الكيمياء في أبحاثه الحديثة قد أثبت أن الماء عنصر لازم وفعال في كل ما يحدث من التحولات والتفاعلات التى تتم داخل الاجسام فهو إما وسط أو عامل مساعد أو داخل في هذا التفاعل أو ناتج عنه، وتقول الآيات الكريمة في قصة خلق آدم أبى البشر عليه السلام أنه خلق من طين، والطين هو خليط من الماء والتراب أى أن الماء عنصر أساسى في تكوين أى شئ حى.

وقال تعالى في سورة طه - آية ٥٠: (قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى).

تفسير علماء الدين: ربنا الذى منح نعمة الوجود لكل موجود، وخلق على الصورة التى اختارها سبحانه له، ووجهه لما خلق.

النظرة العلمية: يرى العلم بنور الايمان أن قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته قد أودعت في كل شئ خلقه صفاته الخاصة التى تؤهله لاداء وظيفته التى خلق لها ومن أجلها بصورة مدهشة تجعل الانسان يقر بعظمة الله جل جلاله ووحدانيته، فكل مخلوق

[٨٧]

لم يخلق عبثا وإنما خلق ليؤدى الدور الذى أهله له مقوماته وقدراته واستعداداته.

الكائنات الحية والخلايا

توصل العلم عن طريق الدراسات المجهرية وهى التى تستعمل فيها المجاهر أى مكبرات الصور إلى درجة كبيرة من التقدم فقد توصل إلى اكتشاف أن الحيوانات والنباتات لا تتركب أجسامها من كتلة واحدة تندمج أجزاء مادتها بعضها في بعض، وإنما تتركب من عدد ضخم من الوحدات الصغيرة التى تعرف بالخلايا (جمع خلية).

ولا توجد الخلايا منفردة ومتباعدة وإنما تتجمع في كتل وتتراص على هيئة صفائح دقيقة، ويطلق على هذه التجمعات اسم الانسجة، وهذه الانسجة تتجمع بدورها لتكون الاعضاء.

ويتم التكاثر التزاوجى بأن ينتج الحيوان خلايا اصطلح على تسميتها بالخلايا الشقيقة، وهى إما خلايا مؤنثة (أى بويضات) وإما خلايا مذكرة (أى حيوانات منوية) والبويضة عادة كبيرة الحجم عديمة الحركة وهى مزودة بكميات من المواد الغذائية، أما الحيوانات المنوية فهى صغيرة جدا ورفيعة، وهى مزودة بأعضاء للحركة تساعد على بلوغ البويضة، فإذا ما أخصبت البويضة بحيوان منوى فإنها تندمج معه وتتحد به

وتدخل في مرحلة تعرف بمرحلة التكوين، وبعد ذلك تنقسم خلايا البويضة إلى عدد كبير من الخلايا، وتأخذ هذه الخلايا بعد ذلك في التمايز والتخصص لان لكل نوع منها وظائف معينة.

[٨٨]

ويتركب جسم الكائن الحي إما من خلية واحدة ويسمى وحيد الخلية أو يتركب من عدد كبير من الخلايا ويسمى عديد الخلايا، وهناك خلايا نباتية للنبات وأخرى حيوانية للحيوان، وقد ساعدت المجاهر على تكبير الخلية إلى درجة عظيمة وأمكن بذلك دراسة مقومات الخلية وتركيبها لان العين المجردة ما كانت لتستطيع الكشف عنها لشدة صغرها.

وتتركب الخلية الحيوانية من:

١ - جدار وهو غشاء رقيق شفاف يحيط بالخلية.

٢ - البروتوبلازم وهو المادة الحية في الخلية ويتكون من مادة هلامية شفافة قوامها مادة بروتينية معقدة التركيب ومختلطة بمادة دهنية، وتحتوى الخلية على نسبة كبيرة من الماء وبعض العناصر الاخرى من الكربون والاكسجين والاروت والكبريت والفسفور، وللبروتوبلازم القدرة على هضم الغذاء وتمثيله وأكسدته وإخراج الفضلات، كما أن له القدرة على النمو والحركة والتكاثر.

وقال تعالى في سورة الانعام آية - ١٢٥: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون).

تفسير رجال الدين: فمن يرد الله أن يرشده لدينه يشرح قلبه لقبول الاسلام حتى يسلم ومن يرد

[٨٩]

أن يضله يتركه ضالا كافرا ويترك قلبه ضيقا لا يجد النور إلى قلبه منفذا ولا مجازا كالمكلف الصعود إلى السماء.

النظرة العلمية: يرى العلم الحديث في هذه الآية حقيقة علمية تؤكد وجود الضغط الجوى الذى اكتشفه أحد العلماء الطليان المسمى تورشيللى في منتصف القرن السابع عشر، فقد قاس هذا الضغط وقدره بما يساوى وزن ٧٦ س.م مكعب من الزئبق، وقد اجتهد بعد ذلك علماء الطبيعة في دراسة الغلاف الجوى وغازاته وإرتفاعه ومقدار وزنه وتخلخله، وأن الانسان على سطح الارض يتحمل قدرا معيناً من هذا الضغط على جسمه، فاذا ارتفع الانسان بالصعود على جبل أو ركوب الطائرة فإن هذا القدر من الضغط يقل تدريجاً بحسب مقدار الارتفاع ويؤثر ذلك في تنفسه ويشعر بضعف حتى إذا وصل إلى إرتفاع ١٢٠٠٠ قدم فوق سطح البحر يحس بصعوبة شديدة في التنفس وضيق في الصدر يجعل مجرد الكلام متعذراً عليه، فهل بعد ذلك برهان على أن هذا القرآن كلام الله الذى يعلم السر وأخفى؟ وليتأمل ذوو الالباب في هذا الاعجاز العلمى الباهر ما عرفه أحد قبل نزول القرآن فسبحان من هذا كلامه.

قال تعالى في سورة الفرقان آية - ٤٨: (وأنزلنا من السماء ماء طهورا).

تفسير علماء الدين: ولقد أنزلنا من السماء ماء طاهرا مزيلا للأنجاس والأوساخ.

[٩٠]

النظرة العلمية: يقول العلم في معنى هذه الآية الكريمة أن الله يمن على البشر بإنزال الماء طاهرا إليهم من السماء، وفي ذلك إشارة إلى أن ماء المطر عند بدء تكوينه يكون في أعلى درجات النقاء بعد تبخره وتخلصه من جميع شوائبه فإنه يكون نقيًا وخاليا من أى شئ ينجسه أو يكدره فهو لذلك صالح للتطهر به من الأضرار والأدران حسية كانت أو للتطهر به من الأحداث الصغرى والكبرى.

ظهور الحياة على الأرض

دلت أبحاث علماء الفلك والرياضيات والبيولوجيا وغيرها من العلوم الطبيعية والكونية التي كرسوا حياتهم للتعلم في دراستها وفهمها أن ظهور الحياة على الأرض لها قصة استغرقت بلايين السنين وهي تمثل كيفية التدرج في نشأة الحياة النباتية والحيوانية على سطح الأرض.

وتبدأ القصة بعدما بردت الأرض وتكونت بحارها وجبالها وسهولها وغلافها الجوى واستعدت لاستقبال الحياة عليها وذلك بعد تعرضها خلال ملايين السنين لتطورها من حال إلى حال.

ثم جاء ميلاد الحياة على الأرض سرا أزليا لا يعلم حقيقته إلا الله الخالق البارئ المصور سبحانه، ولكن الإنسان الذى وهبه الله العقل ورأى آثار قدرة الله في مخلوقاته حاول أن يكشف هذا السر فهداه تفكيره وبحثه وإلهام الله له إلى معرفة ما يأتى:

١ - أن أول ظهور للحياة على الأرض كان فوق سطح الماء والمحيطات والمستنقعات وعلى شواطئ المسطحات المائية التي تكونت عندها مادة الطين حيث اختلط الماء بالتراب.

[٩١]

٢ - أن من عفن الطين المنتن نشأت أبسط وأصغر أنواع الحياة التي نراها ممثلة في بعض أنواع البكتيريا وبعض الكائنات وحيدة الخلية التي لم تتميز بعد على أنها نبات أو حيوان.

٣ - أن من هذا الأصل المشترك لجميع الكائنات نبت فرعان من الخلايا المجهرية أى التي لا ترى إلا بواسطة المجاهر المكبرة تولد من أحدهما النبات ومن الآخر الحيوان.

٤ - أن فرع الخلايا المكونة للنبات؟ رعان ما استحدثت طريقة عجيبة لتركيب مادة الكلوروفيل الخضراء في هيكلها لتكسب بها الطاقة من ضوء الشمس وتستعين بها على استخلاص الكربون من غاز ثانى أكسيد

الكربون الموجود في الجو ثم تحويله إلى مواد سكرية ونشوية وكان هذا بدء ممارسة عملية التمثيل الضوئي لنمو النبات.

- ٥ - أن الخلايا أخذت بعد ذلك تحيط أجسامها الدقيقة بجدران من هذه المواد الكربونية في هيئة السليولوز، وكانت تستعمل الطاقة التي تتبعث في أجسامها نتيجة التمثيل الضوئي داخل هذه الجدران في التحرك.
- ٦ - أن هذه الخلايا كانت أول الخلق وهي كائنات متناهية في الدقة تعيش في غير جلبة أو ضوضاء ويأتيها رزقها رغدا من الهواء وماء البحر وأملاحه.

٧ - أن زمنا طويلا من العصور والاحقاب مضى على هذه الخلايا وهي تنمو وتتطور وأن البحار كانت تغص بكائنات لا عدد لها من هذه العضويات الاولى التي كانت الاصل في جميع أعضاء مملكة النبات التي تكاثرت وغطت الارض بأعشابها وأشجارها وغاياتها الضخمة الكثيفة قبل وجود الانسان.

[٩٢]

- ٨ - أن عالم الحيوان قام كذلك مع الخلايا التي انقسمت وكونت الحيوانات التي عاشت على النبات وغيره وصارت أنواعا مختلفة من الاحياء على الارض.

قال تعالى في سورة نوح آية - ١٣، ١٤: (ما لكم لا ترجون لله وقارا، وقد خلقكم أطوارا) تفسير علماء الدين: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته حتى ترجو تكريمكم بإنجائكم من العذاب، وقد خلقكم كرات متدرجة نطفًا ثم علقا ثم مضغا ثم عظاما ولحما.

النظرة العلمية: تدل الابحاث العلمية في خلق الانسان أنه كانت هناك قبل ظهور آدم عليه السلام صور وصنوف من المخلوقات جاء الانسان ذروة لها في التكوين والتقويم، ويقول القرآن عن الله أنه هو: (الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) أي أنه هدى مسيرة التطور حتى بلغت ذروتها في نوع الانسان المتفوق وذلك بعد أن مر بالانسان قبل وجوده حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، ونظرية التطور في خلق الانسان أصبحت حقيقة ولها براهين تؤيدها.

قال تعالى في سورة نوح آية - ١٧، ١٨: (والله أنبتكم من الارض نباتا، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا)

[٩٣]

تفسير علماء الدين: والله أنشأكم من الارض فنبتم نباتا عجيبا، ثم يعيدكم في الارض بعد الموت، ويخرجكم منها إخراجا محققا لا محالة.

النظرة العلمية: يقرر العلم أن الانسان هو ابن هذه الارض ومصدق ذلك قوله تعالى: (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) وأكثر من ذلك يحدثنا القرآن في صراحة أن الانسان نبتة من نبات

الأرض، وقد أكد القرآن الكريم حقيقة معدن آدم وهو الطين في أشكاله التي ذكرها القرآن في قوله أنه من طين، أو من حمأ مسنون، أو من طين لازب أو من سلالة من طين، أو من صلصال كالفخار. وأن الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام بعد خلقه من الطين وصار جسماً حياً من لحم وعظم ودم وأعصاب ثم صار تكوينه بعد ذلك عن طريق آخر هو من نطفة من منى يمنى.

قال تعالى في سورة الطارق آية - ٥، ٦، ٧: (فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب).

تفسير علماء الدين: فليفكر الإنسان من أى شئ خلق؟ ! خلق من ماء متدفق، يخرج هذا الماء من بين صلب الرجل وعظام الصدر وهى الترائب للمرأة.

[٩٤]

النظرة العلمية: ظهر من الدراسات الطبية الحديثة أن الصلب هو منطقة العمود الفقرى للرجل وأن الترائب هى عظام الصدر للمرأة، كما أظهرت التحاليل الكيميائية أن الماء الدافق هو سائل الرجل المنوى الذى يحتوى على الحيوانات الحية فى النطفة، وقد سمي دافقاً لأنه يندفع وقت الملامسة الجنسية من ذكر الرجل وحده دون الانثى التى لا يتدفق منها سوى إفرازات تسيل لمجرد تليين الجهاز التناسلى وترطيبه.

وقال تعالى في سورة الجاثية آية - ٣ - ٥: (إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين، وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون).

تفسير علماء الدين: أن فى خلق السموات والأرض من بديع صنع الله لدلالات قوية على ألوهيته ووحدانيته يؤمن بها المصدقون بالله بفطرهم السليمة، وفى خلق الله لكم على ما أنتم عليه من حسن الصورة وبديع الصنع وما يفرق وينشر من الدواب على اختلاف الصور والمنافع لدلالات قوية واضحة لقوم يستيقنون بأمورهم بالتدبر والتفكر، وفى اختلاف الليل والنهار فى الطول والقصر والنور والظلام مع تعاقبهما على نظام ثابت، وفيما أنزل الله من السماء من مطر فأحيا به الأرض بالانبات بعد موتها بالجذب، وتصريف الرياح إلى جهات متعددة مع اختلافها برودة وحرارة وقوة وضعفاً علامات واضحة على كمال قدرة الله لقوم فسكروا بعقولهم فخلص يقينهم.

[٩٥]

النظرة العلمية: توجه هذه الآيات نظر الإنسان إلى عدة آيات بينات من قدرة الله وإبداعه فى كل ما صنع من آيات ملكه، ومن ذلك إنها تلفت النظر إلى قوله تعالى: (وتصريف الرياح) فهذه العبارة الموجزة فى كلماتها وراءها حقائق علمية رائعة، فهذه الرياح التى هى الهواء المتحرك فوق غلاف الأرض الجوى إنما تتحرك بتأثير حرارة الشمس التى تجعله يخف ويرتفع ويحل محله هواء بارد ثقيل يندفع نحو منطقة الضغط

المنخفض بنظام دقيق فيه تصريف للرياح وتوجيه لها في هبوبها من مكان إلى مكان معين، وينشأ عن حركة الرياح نتائج لها أهميتها في حياة الناس فهي تسوق السحاب المطرة إلى الأرض المجذبة، وتساعد السفن الشراعية في سيرها، وتحمل اللقاح إلى النباتات النامية وتوزع الحرارة والبرودة في دورات منتظمة على الأرض وغير ذلك من حكمة الله في تصريف الرياح فقد قال تعالى في سورة الاعراف آية - ٥٧ (وهو الذى يرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته، حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء، فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون)، وقد أثبت العلم الدورة الهوائية على سطح الكرة الأرضية وكيف يكون تصريفها من جهة إلى أخرى.

الماء ورد ذكر الماء في القرآن ٦٣ مرة، وهو سائل شفاف لا لون له ولا طعم ولا رائحة، ويتكون أساسا من اتحاد غازى الأكسجين والهيدروجين مع غيرهما. والماء أكثر المواد مقدارا وحجما بالكرة الأرضية وهو يكون الغلاف

[٩٦]

المائى على سطحها، ولو أن الأرض كانت كرة ملساء لا تعاريج ولا تضاريس في سطحها لغطاها ذلك الماء بغلاف سمكه نحو ميلين، أما وسطح الأرض بين منخفض ومرتفع فقد تجمع الماء منذ النشأة الأولى في مناطق هبوط القشرة الأرضية مكونا المحيطات والبحار التى تشغل أكثر من ثلثى مساحة الكرة ومياها ملحة وهذه الملوحة ضرورية لحفظها من التغير والعطن، أما مياه الأنهار فعذبة لأنها تنزل من السحب التى تبخرت من المحيطات ثم تكاثفت وسقطت أمطارا غزيرة خالية من أى شائبة.

والماء عماد الحياة في الأرض لكل كائن حى من نبات وإنسان وحيوان وقد أشار القرآن الكريم في كثير من آياته عن عظم أهميته في إحيائها فيقول تعالى: (والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها) سورة النحل آية - ٦٥.

(وجعلنا من الماء كل شئ حى) سورة الانبياء آية - ٣٠: (والله خلق كل دابة من ماء) سورة النور آية - ٤٥.

(وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا) سورة الفرقان آية - ٥٤.

(وأنزلنا من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) سورة طه آية - ٥٣.

ويحتوى جسم الانسان على حوالى ٧٠ % من وزنه ماء لان له أهمية خاصة في الجسم كموصل لعناصر الغذاء إلى خلايا الجسم وإفراز للمواد الضارة في الجسم وتلطيف لدرجة حرارة الجسم عن طريق تبخره في الرئتين والجلد، ومصادر المياه

[٩٧]

في الجسم هو ما نشربه منه، وما تحتوى الاطعمة عليه من نسب مختلفة من الماء ومما ينتج عن أكسدة بعض المواد الغذائية وتفاعل بعضها مع بعض داخل الجسم.

والماء يعمل على إذابة المواد الغذائية بعد هضمها حتى يتمكن الجسم من امتصاصها، والماء أساس تكوين الدم والسائل اللمفاوى والسائل النخاعى وغيرها من السوائل التى تتكون منه في الجسم من إفرازات كالعرق والبول والدموع والمخاط، ويثبت العلم أن الماء أكثر ضرورة للإنسان من الغذاء فبيما الإنسان يمكنه أن يعيش نحو ٦٠ يوما بدون أكل لا يمكنه أن يعيش بدون الماء أكثر من أسبوع على أقصى تقدير ولو فقد الجسم ٢٠ % من مائه فإنه يكون معرضا للموت.

قال الله تعالى في سورة ص آية - ٧١، ٧٢: (وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين).

تفسير علماء الدين: قال الله لملائكته إني خالق بشرا أى آدم من طين فإذا جمعت خلقه وجعلت الروح فيه فخروا له ساجدين.

النظرة العلمية: تصرح الآية بأن الاصل الذى خلق الله منه آدم أبا البشر هو الطين الذى هو مزيج من الماء والتراب، ويقرر العلم الحديث أن الحياة ظهرت على هذه

[٩٨]

الارض أول ما ظهرت على شواطئ المسطحات المائية حيث يتكون بجوارها الطين الذى ينشأ، منه الزبد والحمأ المسنون والطحالب فالنبات فالحيوان فالإنسان، وأن هذا التطور في حالات الطين وأشكاله السائلة الذكر حدثت عبر ملايين السنين حتى أثمرت شجرتها الاولى، وكان أكمل وأكرم ثمره من ثمارها في النهاية هو الإنسان.

والقرآن الكريم لم يبين لنا كيف تفرعت هذه الشجرة حتى كان الإنسان أحد فروعها، ولكن أشار في أكثر من آية إلى الصلة الوثيقة بين الإنسان وعالم الاحياء الناشئ من الماء الممزوج بالتراب.

ففى قوله تعالى: (والله خلق كل دابة من ماء) (سورة النور آية ٤٥): وقوله سبحانه: (وجعلنا من الماء كل شئ حى) سورة الانبياء آية ٣٠: دلالة قوية على أن الاحياء كلها - ومنها الإنسان - مخلوقة من مادة واحدة هي الماء، وللماء هو المادة اللازمة بل الاصلية لتكوين الطين، إذ لا وجود للطين إلا مع الماء وبالماء.

يقول الله تعالى في سورة الاسراء آية - ٧٠: (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا).

وتدل هذه الآية الكريمة على أن الله كرم أولاد أبينا آدم عليه السلام بحسن القوام والقدرة على النطق والكلام وتخير الاشياء اللازمة لهم، وأنه أعطاهم

[٩٩]

الكرامة والعزة، وأنه هيا الوسائل لحملهم في البر على الدواب وفي البحر على السفن ورزقهم من خير الطعام وفضلهم على كثير من المخلوقات بالعقل والتفكير تفضيلاً عظيماً.

والرأى العلمى السائد أن الانسان وحيد النشأة أى أن السلالة البشرية كلها انحدرت من أب واحد هو آدم ولكن هجرات ذريته القديمة واستقرارهم في بيئات طبيعية مختلفة جعلت كل جماعة تتشكل بحسب ظروف تلك البيئة، وكان من الممكن أن تلتزم كل جماعة بصفات ومميزات الجنسية ولكنها اختلطت بالزواج من الاجناس الاخرى فأخذ عامل الوراثة يعمل عمله في الصفات الجسمية لكل جنس فخلطها بعضها ببعض حتى لا يمكن أن نجد جنسا نقيا في أى دولة في الوقت الحاضر.

الجسد والروح

الانسان مكون من جسد وروح، أما الجسد فقد قام علم الطب بدراسته وتشريح جميع أجزائه وأعضائه وقد تبين له ما في خلق الانسان من معجزات وآيات تدعو إلى الايمان بقدرة الله وحكمته وإبداعه في خلق أجهزته الدقيقة التكوين، فسبحان الله الخالق البارئ المصور الذى له الاسماء الحسنى.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى الانسان خليفته في أرضه، وكان أبو البشر آدم أول خليفة له، وقد علمه الاسماء كلها وأمر الملائكة بالسجود له سجود تكريم وتعظيم لشأنه، فقد قال تعالى في سورة الحجر آية ٢٨ وما بعدها: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ، فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلَّا أَبْلِسَ أَدَمُ أَنْ يَكُونَ

[١٠٠]

مع الساجدين، قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين، قال لم أكن لاسجد لبشر خلقت من صلصال من حمأ مسنون، قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين).

وقد ذكرت الكتب المقدسة قصة آدم وما جرى من مخالفته لأمر ربه وهبوطه إلى الأرض، وهي قصة تدل بوضوح على أن الشجرة المحرمة ووسوسة الشيطان لآدم بالاكل منها ثم إيداء الندم وطلب المغفرة إنما كانت التجربة البشرية المستمرة التى قدرها الله لعباده في هذه الدنيا ما دامت السماوات والأرض ليبتلّى الخلق أيهم أحسن عملاً، وكان القرآن أصدق الحديث عن قصة آدم عليه السلام.

نظرة عابرة في عالم الانسان وصف بعض العلماء القدماء الانسان بأنه عالم أصغر انطوى فيه العالم الاكبر حساً ومعنى، وشبهوا جسده بأنه كالارض وعظامه كالجبال وجوفه كالبحر وأمعأؤه كالانهار وعروقه كالجدول وشعره كالنبات، وهذا تشبيه عادى لاظهار حالته الموافقة لصورة الارض، أما حالته المعنوية والنفسية والروحية فقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تصفها وصف العليم الخبير بكل أحوالها ظاهراً

وخافيتها، وقد أجمل المولى سبحانه وصف طبائع الانسان فقال تعالى في سورة الاحزاب آية - ٧٢: (إنا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا) وتدل هذه الآية الكريمة على أن التكاليف من الواجبات التي يفرضها الدين ويأمر بها الشرع أمر صعب التنفيذ يخافه ويخشاه أقوى الافوياء وتتوء بحمله الجبال على مكانتها وضخامتها إذا حاولت القيام به، ولكن الانسان على ضعفه وجهله غامر وحملها فظلم نفسه لانه حملها ما لا تطيق حمله.

[١٠١]

وإليك طائفة من الآيات البينات في رسم صورة واضحة المعالم لطبائع هذا الانسان المعنوية في قوله تعالى: (إن الانسان لظلوم كفار) سورة إبراهيم - ٣٤ (وكان الانسان أكثر شئ جدلا) سورة الكهف - ٥٤ (وكان الانسان عجولا) سورة الاسراء - ١١ (إن الانسان خلق هلوعا) سورة المعارج - ١٩ (إن الانسان لربه لكنود) سورة العاديات - ٦ (إن الانسان لفي خسر) سورة العصر - ٢ (قتل الانسان ما أكفره) سورة عبس - ١٧ وقال تعالى في سورة الاعراف آية ١٧٢: (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين). تفسير علماء الدين: إن الله سبحانه وتعالى قد أخذ أى أخرج من أبناء آدم أى من ظهورهم ذريتهم، وأنه سبحانه أشهدهم على أنفسهم - وهم في عالم الروح - حيث تشعر كل روح بذاتها ووجودها - أليس الله سبحانه وتعالى هو ربكم وخالقكم؟ فشهدوا جميعا - وقالوا: أنت ربنا وخالقنا، وإن هذا اعتراف منهم بالتوحيد حتى لا يقولوا يوم القيامة إنا كنا غافلين لا نعرف ذلك.

[١٠٢]

النظرة العلمية: في هذه الآية ما يشير إلى أن الذرية أصلها من الاصلاب، وقد عبر عنها القرآن بكلمة ظهورهم للدلالة على معنى علمي يقصد به التعريف بالجهاز التناسلي الذي هو أحد أجهزة جسم الانسان وبيان موقعه ووظيفته وهو أسفل الكليتين وينتهي بالخصيتين، وفي هذا دليل على أن الله القادر هو الذى أخرج من أصلاب بنى آدم ونسلهم وما يتوالدون قرنا بعد قرن ذرية تعرف الربوبية والتوحيد بطريق الدلائل الملموسة المحسوسة والبصائر المستتيرة.

قال تعالى في سورة المؤمنون آية - ١٢ - ١٤: ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.

تفسير علماء الدين: لقد خلقنا الانسان من خلاصة الطين ثم خلقنا نسله فجعلناه نطفة - أى ماء فيه كل عناصر الحياة الاولى - تستقر في الرحم وهو مكان أمين حصين ثم صيرنا هذه النطفة بعد تلقيح البويضة والاختصاصب دما - ثم صيرنا الدم بعد ذلك قطعة لحم، ثم صيرناها هيكل عظميا، ثم كسونا العظام باللحم، ثم

أتمننا خلقه فصار في النهاية بعد نفخ الروح فيه خلقا مغايرا لمبدأ تكوينه فتعالى شأن الله في عظمته وقدرته فهو لا يشبهه أحد في خلقه وتصويره في إبداعه.

[١٠٣]

النظرة العلمية: أشارت الآية الكريمة إلى أول طور من أطوار خلق الانسان هو طور خلق آدم أبى البشر من طين، والطين كما هو معلوم خليط من ماء و تراب، والتراب يتكون أصلا من عدة عناصر مختلفة والعناصر في الطبيعة يبلغ عددها نحو تسعين عنصرا، والطينة التي خلق منها آدم كانت خلاصة مستخرجه من هذه العناصر، وأشارت الآية بعد ذلك إلى العلقه والنطفه والمضغة وما تلا ذلك من تطورات في تكوين الجنين وقد أثبتت هذه التطورات التي ذكرها القرآن الصور الفوتوغرافية التي سجلتها آلات التصوير الدقيقة لها وهي تطابق ما جاء في القرآن عن تسلسلها حالة بعد حالة وشكلا بعد شكل في بطن الام، فهل كان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على علم بكل هذه الحقائق الخفية عن العيون والتي لم يتوصل الانسان إلى معرفتها وكشف خفاياها إلا بعد مئات السنين، أليس هذا هو كلام الله الحق الذى أعجز الناس ببلاغته ثم بأصالته في المعرفة الدقيقة التي تحيط بكل شئ علما؟ وقال تعالى في سورة الانعام آية - ٩٨: (وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون).

تفسير علماء الدين: هو الله الذى أنشأكم من أصل واحد هو آدم أبو البشر، وآدم من الارض فالارض هي مكان استقراركم مدة حياتكم ومستودع لكم بعد مماتكم قد بينا الآيات لقوم يدركون ويفهمون الاشياء على وجهها.

[١٠٤]

النظرة العلمية: يقول الله تعالى وهو أصدق القائلين أنه أنشأكم من نفس واحدة أى من خلية واحدة حية ذات حياة واحدة ونفس واحدة أى من العلقه التي هي البويضة الملحقة بالحيوان المنوى الذى يستقر في الرحم، وتكون البويضة مستودعا لكم، وعلم الاجنة يؤكد ذلك عن خبرة ومشاهدة للصور المأخوذة خلال جميع حالات الحمل.

وقال تعالى في سورة الزمر آية - ٦: (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث).

تفسير رجال الدين: الله سبحانه خلق الناس من نفس واحدة هو آدم أبو البشر، وخلق من هذه النفس وزوجها حواء وأنزل لمصالحكم ثمانية أنواع من الانعام ذكرا وأنثى وهي الابل والبقر والضأن والماعز، ويخلقكم في بطون أمهاتكم طورا بعد طور في ظلمات ثلاث هي ظلمة البطن والرحم والمشيمة.

النظرة العلمية: دلت الابحاث في علم الاجنة أنه وقت تكوين الجنين في أرحام الامهات تنشأ البويضة في أحد مبيضى المرأة حتى إذا اكتمل نضجها انطلقت منه فيتلقفها أحد بوقى فالوب وهو اسم العالم الذى اكتشف

هذين البوقين ثم تمضى إلى الرحم وتبدأ مراحل التطور، وفي الرحم يمضى الجنين بقية مدة الحمل حتى يكون لنفسه

[١٠٥]

الاعلغة الثلاث التي تحيط به، ويقرر العلم في تفسير الظلمات الثلاث أنها المبيض وقناة فالوب والرحم لأنها تقع في مواضع متفرقة، أما تفسيرها بأنها البطن والرحم والمشيمة فهي تعتبر ظلمة واحدة لأنها في مكان واحد، وهكذا نرى القرآن قد أوماً إلى هذه الحقائق في وقت لم يكن العلم قد عرفها، فهل لهؤلاء المكذبين للقرآن ورسالة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم أن يراجعوا أنفسهم ويؤمنوا بالله الواحد الاحد منزل القرآن معجزة من لدنه ليكون للعالمين بشيراً ونذيراً. وقال تعالى في سورة التين آية - ٤. (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم).

تفسير علماء الدين: لقد خلقنا جنسى الانسان مقوماً في أحسن ما يكون من التعديل، متصفاً بأجمل ما يكون من الصفات).

النظرة العلمية: إن تعبير القرآن الكريم بعبارة (في أحسن تقويم هو تعبير موجز أشد الإيجاز، ولكنه ينطوى على معان جمة يعجز الانسان عن إيفائها حقها من البيان، لأن الله الذى أتقن كل شئ خلقه قد أودع في الاجسام البشرية من عجائب الاسرار ما يدل على حكم بالغة، وأقرب شئ يدل على روعة خلق الانسان يبدو لأول وهلة في اعتدال قامته، وتناسب أطرافه ومرونة حركته واتزانها ووضع الرأس في مكانها المحكم لكى يكون لها السيطرة التامة من مركزها وهو المخ على جميع حركات الجسم وتصرفاته من خلال شبكة الاعصاب المنتشرة في جميع أجزائه، ثم إننا لو شرحنا أى جهاز من أجهزة الجسم لبدت لنا عجائب ودقائق

[١٠٦]

لا يسع العقل إلا أن يقف أمامها خاضعاً خاشعاً لجلال الله الحكيم الخبير وهذا هو منتهى التقويم الذى يتمثل فيه كل الاعتدال والاستواء.

وقال تعالى في سورة الانبياء آية - ٤: (قال ربى يعلم القول في السماء والارض وهو السميع العليم).

تفسير علماء الدين: قال الرسول لهم وقد أطلعهم الله على حديثهم الذى أسروه: ربى يعلم كل ما يقال في السماء والارض، وهو الذى يسمع كل ما يسمع، ويعلم كل ما يقع في ملكه.

النظرة العلمية: يرى العلم أن الآية تشير في صراحة واضحة وبساطة لفظية جلية إلى أن في السماوات والارض أقوالاً تقال أى أن بها مخلوقات تتكلم بأى صورة من صور التفاهم لفظاً أو رمزاً أو إشارة بين

سائر الكائنات الحية ما يعقل منها وما لا يعقل كالحشرات، وهذا يقودنا إلى قوله تعالى في سورة النمل: (قالت نملة يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده) ويدل ذلك على أن النمل يعيش في جماعات أى أن له مجتمعاً له خصائصه من اليقظة والحذر وطرق التفاهم فيما بينها لكى تنظم أعمالها

الباهرة في حياتها القائمة بالالهام الآلهي على منتهى النظام والاحكام، ويتم لها ذلك بطريق من طرق التفاهم بإشارات وحركات وأصوات خاصة لها دلالاتها فيما بينها كما للكلام دلالاته بين بنى الانسان.

[١٠٧]

وقال تعالى في سورة الحج آية - ٥: (ياأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا).

تفسير علماء الدين: يا أيها الناس إن كنتم في شك من بعثنا لكم بعد الموت ففي خلقكم الدليل على قدرتنا على البعث، فقد خلقنا أصلكم من تراب، ثم جعلنا منه نطفة حولناها بعد مدة إلى قطعة دم متجمدة ثم جعلناها قطعة من اللحم مصورة فيها معالم الانسان أو غير مصورة لنبين لكم قدرتنا على الابداع والتدرج في التكوين والتغيير من حال إلى حال، ونسقط من الارحام من نشاء، ونقر فيها ما نشاء حتى تكمل مدة الحمل ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا.

النظرة العلمية: تناول علم الاجنة أطوار خلق الجنين ويقرر في ذلك الشأن أن العلق ليس بدم جامد وإنما هو مجموعة من الخلايا نشأت بطريقة الانقسام عن البويضة الملقحة التي تمثل الخلية الانسانية الاولى، وهي لا تحتوى على خلايا دموية على الاطلاق بل إن هذه الخلايا الدموية لا تتكون طلائعها إلا حول اليوم الثامن عشر من حياة الجنين، ثم يأتى بعد ذلك دور المضغة التي تأخذ في التخلق والتشكل ويستمر هذا التطور حتى اليوم الستين من عمر الجنين حيث تظهر الملامح الانسانية مخلقة في جسم الجنين، وقد يحدث شذوذ في نمو الجنين كأن يغوص كيانه في غير المكان الطبيعي من جدار الرحم فلا يتخلق ويموت وهذه هي حالة السقط، ورغم ما وصل

[١٠٨]

إليه العلم في عصرنا من تقدم مذهل في البحث لايزال تخلق الاجنة أمرا محيرا للعلماء لا يستطيعون تفسيره أو تعليقه ولا يدرون كيف تميزت الخلية الانسانية وتحولت إلى الاعصاب والعظام والعضلات وأجهزة السمع والبصر وغيرها، إن هذا هو سر الله الكامن في قدرته وإبداعه لأنه على كل شى قدير، ولا يحيط أحد بشئ من علمه، سبحانه لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير.

علم الاجنة

ظهر من دراسات الاجنة لكثير من الانسان والحيوان أن الجنين أثناء نموه يعيد تاريخه التطوري الذي يقول إن كل حيوان أثناء المراحل المتعاقبة لنموه إنما يعرج في سلم التطور الذي سلكه أجداده من قبل أثناء الازمنة الجيولوجية السحيقة.

ولنأخذ جنين الانسان مثلاً لنلاحظ التغيرات التي يمر بها حتى يولد طفلاً مكتمل النمو، فهو أول أطواره يكون خلية مفردة تنتج من تزاوج خلية الذكر بخلية الانثى، ثم هو ينقسم وينقسم - شأن الحيوانات الدنيا - ويتزايد في الحجم حتى يصير شيئاً يشبه العلقه بداخلها تجويف لقناة الطعام، ثم يأخذ في التصلب فوق هذه القناة هيكل غضروفي ممتد، وفي هذه الفترة يتكون للجنين أربعة أزواج من الفتحات خلف منطقة الاذن تذكرنا بخياشيم التنفس في الاسماك، ويصير الجنين كله أشبه بالسמكة في تلك الفترة، ثم هو ينمو ويتصلب عموده الفقرى، ويقوى شيئاً فشيئاً، وفي الاسبوع السابع عندما تستبين الاطراف نجد له ذيلاً مكوناً من خمس أو ست فقرات يجاوز طول الساقين، ثم يبدأ هذا الذيل

[١٠٩]

في القصر والانكماش شيئاً فشيئاً حتى يصير عند الولادة عصصعة تختفى تحت الجلد في مكان العجز، وفي الاشهر الاخيرة يكون جسم الجنين كله مكسواً بالشعر الذي يبدأ في الزوال قبل الولادة، وهذه هي المراحل التي يمر بها جنين الانسان وهو في ظلام الرحم من أمه يعيد فيها باختصار كل الخطوات التطورية الكبرى التي مر بها أجداده وأسلافه خلال ليل التاريخ الجيولوجي الطويل، ومن أنصع الأدلة على هذه التطورات ما ورد في علوم الحفريات من تتبع أطوار النمو في الحيوانات من طبقة إلى طبقة في الصخور، وقد أثبتت الصور الفوتوغرافية الدقيقة التي أخذت للجنين هذه الحالات في بطن أمه يوماً بعد يوم بشكل ظاهر للعيان. قال الله تعالى في سورة النحل آية - ٧٨: (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون).

تفسير علماء الدين: والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تدركون شيئاً مما يحيط بكم وجعل لكم السمع والابصار والافئدة وسائل للعلم والادراك لتؤمنوا به عن طريق العلم وتشكروه على ما تفضل به عليكم. النظرة العلمية: يؤكد لنا العلم بدلائله الكثيرة أن حاسة السمع تسبق حاسة البصر في أداء وظيفتها، ولم يكن أحد يعلم ذلك وقت نزول القرآن، وقد ورد تقديم السمع على البصر في أكثر من سبعة عشر موضعاً منها قوله تعالى:

[١١٠]

(وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة) (الاحقاف آية ٢٦) (حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم) (فصلت آية ٢٠) (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) (الاسراء ٣٦) ويقرر العلم أن حاسة السمع تبدأ مبكرة في أداء عملها في الاسابيع القليلة الاولى بعد ولادة الطفل، أما البصر فيبدأ عمله

في الشهر الثالث ولا يتم تركيز الابصار إلا بعد الشهر السادس، ودليل ذلك أن أذن الطفل تؤدي وظيفتها عقب ولادته لانه إذا سمع صوتا شعر به وأحسه فوراً وصدر عنه ما يدل على التأثر به، أما عين الطفل فإنها لا تؤدي وظيفتها إلا بعد فترة من ولادته، ودليل ذلك أنك إذا مددت يدك قريباً منها لا ترمش ولا تتحرك.

ومن روعة الاعجاز العلمي في هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه يذكر الفؤاد بعد السمع والبصر لمعنى علمي دقيق أيضاً وهو أن اكتساب العلم يحصل بعد الانتقال من مرحلة الادراك الحسى بالسمع والبصر إلى مرحلة الادراك العقلى، وهذه هي طريقة تعلم المعارف والخبرات وكلها تجيئ بحسب الترتيب الذى ذكره القرآن وهو الادراك الحسى أولاً ثم الادراك العقلى، ودليل ذلك وأضح في أن الطفل يولد لا يعلم شيئاً ثم تتوالى عليه المدركات الحسية وتتكاثر عن طريق السمع ثم اليصر فإذا ما صارت مجموعة المدركات الحسية كافية يأتى دور الفؤاد ليعقل ويعى ما أدركه الطفل منها بحواسه.

وهناك حقيقة أخرى في تقديم السمع على البصر وهو أن القرآن يذكر السمع مفرداً ويذكر الابصار بصيغة الجمع وفى ذلك سر من أسرار الاعجاز أيضاً لان استقبال الاذن للمسموع لا خيار للانسان فيه حيث لا حجاب يحجب وصول

[١١١]

الصوت إلى طبلة الاذن، أما العين فلانسان الخيار في أن يرى أو لا يرى ولها جفون تساعد على ذلك. وقال تعالى في سورة القيامة آية - ٣، ٤: (أحسب الانسان ألن نجوع عظامه، بلى قادرين على أن نسوى بنانه).

تفسير علماء الدين: أحسب الانسان بعد أن خلقناه من عدم أن لن نجوع ما بلى وتفرق من عظامه؟ نعم إننا نقدر على أن نسوى أطراف أصابعه الصغيرة ونجعلها كما كانت قبل الموت فكيف بالعظام الكبار. النظرة العلمية: تدل عبارة تسوية البنان على معنى لم يكشف العلم سره إلا بعد نزول الآية بأكثر من ألف سنة حينما عرف أن لكل بنان بصمة خاصة به، تختلف فيها اتجاهات خطوطها اختلافاً واضحاً بين فرد وآخر، وبين جميع البشر وقد استخدم الانسان هذه الاختلافات في تحقيق الشخصية عن طريق البصمات وقد أفادت هذه الحقيقة في التعرف على الاشخاص عن طريق بصماتهم في حالة وقوع جرائم يترك الجناة فيها بصماتهم على أى شئ تناولوه.

وقال تعالى في سورة فصلت آية - ٥٣، ٥٤: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف

[١١٢]

بربك أنه على كل شئ شهيد، ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شئ محيط).

تفسير علماء الدين: سنريهم آيات وحدتنا وقدرتنا في أقطار السماوات والارض والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والامطار والنبات والاشجار والجبال والبحار وغيرها وسنريهم ما أودعنا في نفوسهم من الحواس والقوى والعقل والروح وما يصيبهم من البلى والمحن وما نجريه عليهم من النعم، حتى يظهر لهم ما جئت به يا محمد من الحق، أينكرون إظهارنا لهم الآيات؟ أو لم يكف بربك أنه مطلع على كل شيء، ألا إن الكفار في شك من لقاء ربهم لاستبعادهم البعث، ألا إن الله بكل شيء محيط بعلمه وقدرته.

النظرة العلمية: تصرح هذه الآية بحقيقة كبرى في ذات الانسان وهى نفسه التى تناول علم النفس دراستها وكشف ما في النفوس البشرية من عوالم مكنونة حافلة بالاسرار وبالعجائب والغرائب من السلوك والمشاعر ومن تقلبات بين طمأنينة وقلق وبين انشغال واستقرار وبين هدوء وانفعال، وكيف أن النفس لها حالات من الرشد والهداية مع النفس اللوامة وحالات من للفجور والطغيان مع النفس الامارة، وإليك بعض الآيات التى تفصح عن أمثال هذه الحالات فقد قال تعالى: (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) (سورة الشمس آية ٧ - ١٠).

(وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي) (سورة يوسف آية - ٥٣)

[١١٣]

وما أصابك من سيئة فمن نفسك) (سورة النساء - ٧٩) (فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين) (سورة المائدة آية - ٣٠).

(وفي الارض آيات للمؤمنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون) سورة الذاريات (آية - ١٠).

والحقيقة أن علم النفس قد صارت له أهمية في تفسير تصرفات الناس ودوافعها وأمراضها وعللها، كما أن فيه مجالات لكشف مناطق اللاشعور في الانسان وإظهار عوامل الكبت التى هى سبب العقد النفسية وبيان طرق معالجتها وغير ذلك من مجالات أبحاثه الحيوية المتعددة.

وقال تعالى في سورة المائدة آية - ٦: (ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وأمسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين، وإن كنتم جنبا فاطهروا، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون).

[١١٤]

تفسير علماء الدين: يا أيها المؤمنون إذا قمتم للصلاة ولم تكونوا متوضئين فتوضئوا بغسل وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برؤوسكم كلها أو بعضها واغسلوا أرجلكم مع الكعبين، وإن كنتم جنبا فاغسلوا جميع أبدانكم بالماء، وإن كنتم مرضى مرضا يمنع استعمال الماء أو كنتم مسافرين وتعذر وجود الماء فعليكم

بالتيمم بالتراب الطهور، ما يريد الله فيما أمركم به التضييق عليكم ولكنه شرع ذلك لتطهيركم ظاهرا وباطنا وليتم نعمه عليكم بالهدية والبيان والتيسير لتشكروا الله على هدايته وتمام نعمته بالمداومة على طاعته.

النظرة العلمية: يقرر العلم الحديث أن هذه الآية الكريمة تظهر لنا علاقتها بالطب ولاسيما الطب الوقائي للإنسان من الامراض الجلدية التي يتعرض لها الانسان إذا لم ينظف أعضاء جسمه وبخاصة المعرضة للعوامل الجوية وما فيها من أتربة وجراثيم وغازات ضارة، ولا شك أن الوجه والايدي والارجل هي أكثر أجزاء الجسم تعرضا للتلوث والتأثر بهذه الميكروبات وهي تعد بملايين الملايين في كل سنتيمتر مكعب من الهواء، وأن الوضوء خمس مرات في اليوم لا يترك مطلقا أى درن على الجسم يخشى منه الضرر وهكذا نرى آيات الله سبقت الحكمة القائلة بأن الوقاية خير من العلاج.

وقال تعالى في سورة البقرة آية - ٢٢٢: (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن

[١١٥]

حتى يطهرن فإذا تطهرن فاتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين).

تفسير علماء الدين: يسألونك يا محمد عن إتيان الزوجات زمن المحيض فأجبهم أن المحيض أذى فامتنعوا عن إتيانهم خلال مدته، ولا تأتوهن حتى يطهرن، فإذا تطهرن فاتوهن في المكان الطبيعي، ومن كان وقع منه شئ من ذلك فليتب فإن الله يحب من عباده كثرة التوبة والطهارة من الافذار والفحش.

النظرة العلمية: لا يقتصر الاعجاز في هذه الآية على أسلوبها الرفيع ونظمها البديع الذي يجد فيه رجل البلاغة والبيان روعة اللفظ والاداء ودقة التعبير عن الامور الجنسية بل إن إعجازها يتجلى فيما حوت من جلال المعانى الطبية وأغراضها النبيلة، وإليك ما يقرره علم الطب في شأن المرأة الحائضة وضرورة اعتزالها في مدته، وذلك لان دورة الحيض رغم كونها حالة طبيعية إلا أنها تسبب للمرأة آلاما في بدنها وانحرافا في مزاجها يصرفها عن الرغبة في الاتصال الجنسي، وتعانى منه حدة في طبعها، وقد تشعر بمغص شديد تصحبه أحيانا أعراض اضطرابات نفسية، كما أن الجهاز التناسلي للمرأة أيام الحيض يكون معرضا لكثير من الالتهابات لان المهبل في أوقات الحيض يكون ميدانا مفتوحا لغزو أسراب مختلفة من الجراثيم، وإن الوطئ في هذه الفترة يؤدي إلى التهابات بالمبيض قد يسبب العقم أحيانا، كما أنها قد تصيب الرجل بالعدوى فتحدث عنده التهابات في أعضائه التناسلية، ولا شك أن الجماع في المحيض ينذر الرجل بخطر داهم هو في غنى عنه لو خالف هوى

[١١٦]

نفسه وأطاع أمر ربه، وهذا هو ما وجهه القرآن للناس لاتباعه والتزامه حرصا على صحتهم وسلامتهم، وما كان أحد يعلم ذلك ولكن كان علمه عند خالق كل شئ وأنزله في قرآنه لحماية عباده من أضرار وأمراض محققة، لأن ربنا رؤوف رحيم بعباده.

قال تعالى في سورة محمد آية - ٤: (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب).

تفسير علماء الدين: (فإذا لقيتم الذين كفروا في الحرب فأضربوا رقابهم) النظرة العلمية: تبين الآية الكريمة أن أ؟ - ع وأسرع وسيلة للأجهزة على المراد قتله من الاعداء بغير تعذيب له ولا تمثيل به هو ضرب الرقاب لقطعها، إذ ثبت أن الرقبة هي حلقة الاتصال بين الرأس وسائر الجسد، فإذا قطع ما في الرقبة من الجهاز العصبي شلت وظائف الجسم الرئيسية، كما أن قطعها فيه قطع للشرابين والاوردة وبذلك يمتنع وصول الدم إلى المخ، كما تنقطع الممرات الهوائية ويتوقف التنفس وهذا يؤدي إلى إنهاء حياة المضرور سريعا، فسبحان من أحاط علمه بكل ما في جسم الانسان من أعضاء وأعصاب فيها الاسباب المؤدية إلى حياته أو موته، وقد نزلت الآية في وقت كانت السيوف فيه هي أكثر الأسلحة استعمالا وما تزال.

[١١٧]

وقال تعالى في سورة محمد آية - ١٥: (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه).

تفسير علماء الدين: صفة الجنة التي وعد الله المتقين فيها أنهار من ماء غير متغير وأنهار من لبن لم يتغير طعمه.

النظرة العلمية: قررت الآية الكريمة حقيقة علمية قبل أن يكشف العلم بوسائله وأدواته عالم الميكروبات أي الجراثيم التي توجد في الماء الراكد الذي يصير مستودعا لملايين البكتيريا والطفيليات الضارة التي تصيب الانسان والحيوان بالامراض، فانه لما اخترع الانسان المناظير المكبرة رأى بواسطتها كيف أن الماء الراكد يموج بملايين الكائنات الدقيقة التي لا ترى بالعين المجردة وتتكاثر بسرعة هائلة فتفسد الماء وتجعله متغير الرائحة والطعم وسببا في الامراض والابوءة التي ما كان أحد يعرف مصدرها قبل اكتشافها بواسطة المجهر (الميكروسكوب) أي مكبر الصور إلى درجة كبيرة.

وقال تعالى في سورة فصلت آية - ٣٩: ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شئ قدير.

[١١٨]

تفسير علماء الدين: ومن دلائل قدرة الله تعالى أنك ترى الارض يابسة فإذا أنزلنا عليها الماء تحركت بالنبات وانتفخت وزادت إن الذي أحيا الارض بعد موتها لخليق أن يحيي الموتى من الحيوان إنه على كل شئ تام القدرة.

النظرة العلمية: يؤكد القرآن الكريم في كثير من آياته التي نزلت في بيان أهمية الماء بل ضرورته للحياة والاحياء في قوله تعالى: (وجعلنا من الماء كل شيء حي) (والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشأنا به بلدة ميتا) (وانزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد) وتدل أبحاث علم النبات على أن عناصر التربة ومركباتها المختلفة الميئة عندما ينزل عليها ماء المطر تذوب فيه وتتحلل فيسهل وصوله إلى بذور النبات وجذوره حيث تتحول إلى خلايا وأنسجة حية، ولذلك تبدو حية ويزيد حجمها بما يتخللها وما يعلوها من نبات، وقد سبقت الإشارة إلى الماء وأهميته.

وقال تعالى في سورة فصلت آية - ٩: (قل أنكم لتكفرون بالذى خلق الارض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين).

[١١٩]

تفسير علماء الدين: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: عجا لكم ! تكفرون بالله الذى خلق الارض في يومين وأنتم مع هذا تجعلون له شركاء متساوين مع ذلك الخالق للارض ومالك العوالم كلها رب العالمين.

النظرة العلمية: ذكر الله تبارك وتعالى كلمة اليوم والايام في عدة آيات منها: (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) سورة الحج آية - ٤٧.

(يدبر الامر من السماء إلى الارض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) سورة السجدة آية - ٥.

(تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) سورة المعارج آية - ٤ يقول علماء الفلك إن وحدات الزمن التى يستخدمها الناس لتقدير الوقت في دنيانا مرتبطة بالارض ودورانها حول محورها مرة كل ٢٤ ساعة، وحول محورها كل سنة، فإذا ما غادر أحد الارض إلى أى جرم سماوى آخر اختلفت الوحدات الزمنية طولا وقصرا، والآيات الكريمة السابقة تشير إلى هذه الحقيقة العلمية وإلى أن الزمن مختلف في مقداره، وأن هناك سنوات فلكية نسبية يمكن التفرقة بينها، فالسنة الشمسية على الارض تحسب بمقدار الزمن الذى تقطع فيه الارض دروة كاملة حول الشمس في ٣٦٥ يوما شمسيا على حين أن السيارات القريبة من الشمس مثل عطارد فإنه يقطع دورته حول الشمس في ٨٨ يوما،

[١٢٠]

على حين أن بلوتو وهو أبعد الكواكب السيارة من الشمس وأبطؤها حركة يتم دورته حولها في ٢٥٠ سنة من سنواتنا، فالايام في ملك الله مختلفة طولا وعددا.

وقال الله تعالى في سورة الاسراء آية - ٣٢: (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا).

تفسير رجال الدين: ولا تقربوا الزنى بمباشرة أسبابه ودواعيه لانه رذيلة واضحة القبح ويئس طريقا طريقه.

النظرة العلمية: لقد أثبت علم الطب أن الزنى فيه أضرار صحية خطيرة تهدد البشرية بالأمراض الخبيثة التي يصعب علاجها، فهو السبب المباشر في الزهري وهو مرض يعدى بمجرد اللمس ويؤثر تأثيراً سيئاً في الجهاز العصبي، وكذلك بسبب مرض السيلان الذي هو من المعضلات المرضية الخطيرة التي حار في علاجها الطب وهو يترك المصاب به في حالة من الألم والمرض يعطلان حركته وبشلان تفكيره ويجعلانه عضو أشل لا فائدة فيه، كما أنه سبب تشويه النسل، وقد ثبت أن كل امرأة اتصلت برجل مصاب بهذه الأمراض الخبيثة لأبد أن تصاب هي الأخرى بها وإننا نحمد الله تعالى ونشكره على تفضله تعالى بالارشاد إلى كل ما فيه صحة عباده وسلامتهم، فهو سبحانه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين يريد بهم الخير دائماً.

[١٢١]

قال تعالى في سورة الشعراء آية - ١٦٥: (أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون).

تفسير علماء الدين: قال نبي الله لوط لقومه: أتستمعون بوطئ المذكور دون الاناث وقد خلقها الله لكم؟ بل أنتم قوم متجاوزون الحد بارتكاب هذه الفاحشة المنكرة.

النظرة العلمية: يرى علماء الاجتماع أن هذه الفاحشة المنكرة التي تنفر منها الطباع الكريمة هي أسوأ ما ينزل بالإنسان إلى أخط الحضيض من الكرامة الأدمية، وأن إشاعتها وتفشيها وتعودها يؤدي إلى تعطيل سنة الزواج التي هي سنة الله في خلقه والتي هي طريقة التناسل الطبيعية والتكاثر الذي عليه عمارة الأرض وإصلاحها، ثم إن علماء الطب يرون في جريمة اللواط من الاخطار الصحية لفاعلها مثل ما يصيب الزناة من أمراض جنسية خبيثة يصعب البرء منها مثل الزهري والسيلان والقرحة والجرب كما أنه يفقد الإنسان السيطرة على عملية التبرز فيحدث منه عن غير إرادة، وقد يفرض الأمر بالمجنى عليه في هذا الفسق أن يصير مخنثاً إذا لزمته هذه العادة من صغره ويفقد بذلك رجولته.

قال الله تعالى في سورة النور آية ٢٠: الزانى والزانية فاجلدوا كلا منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله).

[١٢٢]

تفسير علماء الدين: اضربوا كلا من الزانى والزانية مائة جلدة ولا يمنعكم شئ من الرأفة عند تنفيذ الحكم.

النظرة العلمية: يرى علماء التشريع أن ضرب الزانى أو الزانية مائة جلدة لا رحمة فيها أمام الناس هو العقاب الرادع لكل من تسول له نفسه ارتكاب هذه الجريمة النكرا وبروا أن القوانين الوضعية التي تعاقب الزانى بالحبس أو التهاون في مؤاخذه باستعمال توافه العقوبات قد أدى إلى إشاعة الفسق والفجور وهانت الاعراض وفسدت النفوس وضاعت الانساب وضاعت كرامة العائلات وقد يؤدي ذلك إلى الدفاع عن الشرف بالقتل والاخذ بالتأثر في أعراض المعتدين كرها وغير ذلك من عوامل الهدم والتخريب للمجتمعات.

وقال تعالى في سورة النور آية - ٣: الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين).

تفسير علماء الدين: المجرم الخبيث الذى من دأبه الزنا ولا يرغب إلا في نكاح مجرمة خبيثة عرفت بالزنا أو الشرك، والخبيثة التى من دأبها الزنا لا يرغب في نكاحها
[١٢٣]

إلا خبيث عرف بالزنا أو الشرك، ولا يليق هذا النكاح بالمؤمنين لما فيه من مقارفة الفسق والتعرض للتهمة. النظرة العلمية: ينظر علم النفس وعلم الاجتماع إلى هذه الآلية نظرة علمية تحليلية، فيرى في طبيعة الزانى أنه مخلوق شاذ لا يتفق سلوكه مع سلوك الرجل العادى السوى من الناحية العقلية والنفسية والاخلاقية، وهو يقدم على جريمته النكراء مع من ثمائله الشذوذ في الحالة النفسية والعقلية والاخلاقية ولو أردنا معرفة العوامل التى تحمل الزانى على فحشه هذا نجد أنها شذوذ عن الطبيعة وانحلال في الاخلاق واستسلام للاهواء الشهوانية الفاسدة، وأنه لا يقع في جريمة الزنا إلا من كان فاسقا مستهترا بدينه، أما الرجل المتدين الذى يعبد الله ويخشاه فإنه لا يقع في هذه الفاحشة مهما كانت المغريات لان له من الدين حصانة تحميه وتحفظه من الوقوع في هذه الجريمة النكراء.

قال تعالى في سورة ق آية - ٣، ٤: (أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد، قد علمنا ما تنقص الارض منهم وعندنا كتاب حفيظ).

تفسير علماء الدين: أبعد أن نموت ونصير ترابا نرجع أحياء؟ ذلك البعث بعد الموت رجع بعيد الوقوع، قد علمنا ما تأخذه الارض من أجسامهم بعد الموت وعندنا كتاب دقيق الاحصاء والحفظ.

[١٢٤]

النظرة العلمية: تحمل هذه الآية في طياتها معنى القانون العلمى الذى يقول بأن المادة لا تبنى، ودليل ذلك أن الشمعة التى احترقت لم تبق مادتها بل إنها تحولت أثناء احتراقها إلى مواد غازية وأخرى سائلة لو جمعها الانسان ووزنها لم يجد بها نقصا عن وزنها السابق قبل احتراقها، وحقيقة عدم فناء المادة قانون الله وسنته في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، وقد تكونت الخلائق في أول أمرها من التراب، وبعد ذلك تناسلوا وتغذوا بما تخرجه الارض من نبات وبما يتغذى من الارض من حيوان، ثم إنهم بعد ذلك يقبرون ثم يبعثون ولا ينقصون، أى أن الناس نشأوا نشأتهم الاولى من الارض ثم إنهم إلى الارض يعودون، ويؤيد ذلك قوله تعالى: (منها خلقناكم وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى) ومعنى ذلك أن جثة الميت التى تحللت وصارت سائلا تسرب في التراب وغارات انتشرت لم تتبدد، وإنما ترجع إلى أصلها كما كانت دون نقص، وسبحان الله الذى عنده كتاب حفيظ لكل ذرة في السماوات والارض فهو القائل: (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الارض ولا

رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) فكيف يذهب الانسان وهو أشرف المخلوقات هباءً ويتبدد سدى، قال تعالى، (أفحسبتم أنا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) كلا إن مادة الاجسام لا تفنى بعد موتها بل هي باقية موجودة بصور مختلفة وفي حفظ من التبدد والضياع بأمر الله.

[١٢٥]

وقال تعالى في سورة الغاشية آية - ١٩: (أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت؟).

تفسير علماء الدين: أيهمل الناس التدبر في آيات الله فلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت خلقاً بديعاً يدل على قدرة الله، وإلى السماء التي يشاهدونها دائماً كيف رفعت رفعا بعيد المدى بلا عمد تحملها، وإلى الجبال كيف أقيمت شامخة تمسك الأرض فلا تميل ولا تميد؟ النظرة العلمية: تدعو هذه الآية الكريمة إلى التفكير في عجائب صنع الله الماثلة في الابل لتكون سفن الصحراء، ويدخل التفكير في خلقها وتكوينها في علم الاحياء، وإلى رفع السماء لتكون سقفاً واقياً للأرض من الرجوم التي تتساقط عليها من شهب ونيازك وأشعة كونية مهلكة، ويدخل ذلك في علم الفلك، وتدعو هذه الآية إلى التفكير في الجبال وكيف أنها تكونت من حركات الأرض الباطنية التي لا يهدأ باطنها من الثوران وكذا التفكير في صخورها المختلفة الانواع ويدخل ذلك في علم الجيولوجيا، وهكذا تبدو آيات الله الخلاق العظيم في قرآنه الكريم لتذكر الناس وتحثهم على التأمل والتفكير والتدبر في آيات الله المحيطة بهم في الأرض وفي السماء.

[١٢٦]

وقال تعالى في سورة الاسراء آية - ٨٥: (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً).

تفسير علماء الدين: يسألك قومك يا محمد بايعاز من اليهود عن حقيقة الروح، فقل لهم الروح من علم ربي الذي استأثر به، وما أوتيتم من العلم إلا شيئاً قليلاً في جنب علم الله.

النظرة العلمية: يقرر الفلاسفة والعلماء أنه مهما بلغ اجتهادهم وتبحرهم في العلم وأكثروا من التأمل والتفكير في الكون فإنهم أعجز من أن يقطعوا برأى حاسم في حقيقة الروح أو التعرف على أى شئ من ماهيتها، وقد حاول بعض كبار الفلاسفة القدماء أن يحلوا لغز الروح ويكشفوا عن سرها فحاموا حول حماها وأكثروا من التأمل والتفكير في أمرها ولكنهم لم يصلوا إلى شئ يكشف عن جوهرها، وخير ما قيل في الروح ما جاء في آيات الله وأحاديث رسوله عن النفس الانسانية ذاتها وأنها سر مكنون في كيان الانسان مثل الروح من حيث أنها شئ يحس بمختلف الاحاسيس من اطمئنان وقلق وسعادة وشقاء وغير ذلك من تقلب في شتى الانفعالات والحالات الشعورية والوجدانية.

وقد اختلف العلماء في معنى الروح الانسانية وكيفية تعلقها بالبدن وسريانها فيه أو في تجردها عنه وأشهر الآراء في ذلك قولان: أولهما - أنها ليست جسما ولا عرضا بل هي جوهر مجرد قائم بنفسه وليس حالا في بدن الانسان ولا متعلقا به تعلقا يسهل زواله بل هو تعلق وسط بين بين

[١٢٧]

كتعلق العاشق بالمعشوق عشقا جبليا إلهاميا لا ينقطع ما دام البدن صالحا لان يتعلق به.

ثانيهما أنها جسم نوراني سرى في الاعضاء سريان الماء في الورد والدهن في الزيتون والنار في الفحم لا يتبدل ولا يتحلل، وهو الجسم المعنوى الحامل لصفات الكمال من العقل والفهم داخل الهيكل المحسوس القابل للزوال الذى يطلق عليه مجازا اسم إنسان كما يسمى ضوء الشمس شمسا لان ضوء الشمس قائم بها وتابع لها ويستدل به عليها، كذلك الانسان الظاهر فهو ظل وشبح للانسان الحقيقى لانه مظهر انفعاله ومحل تصرفاته وهو المراد بقوله تعالى: (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم) أى في أحسن حالة من الفطرة التى تقرر وتعترف بالربوبية لخالقها والمزودة بالغرائز المستعدة لادراك الحقائق الكلية والجزئية.

ويقول ابن القيم وهو من أصحاب الرأى في هذا البحث: إن الارواح أجساد حاملة لاغراضها من التعارف والتناكر وأنها عارفة ومميزة للأشياء وأنها مخالفة في الماهية لهذه الاجسام المحسوسة، وأن الروح جسم نوراني خفيف متحرك في جوهر الاعضاء يسرى فيها سريان الماء في الورد والدهن في الزيتون، والنار في الفحم.

وقال تعالى في سورة الحج آية - ٧٣: (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له، وأن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب).

[١٢٨]

تفسير علماء الدين: يا أيها الناس (والمراد أهل مكة وغيرهم): إنا نبرز أمامكم حقيقة عجيبة في شأنها فاستمعوا إليها وتدبروها: إن أصنامكم لن تستطيع أبدا خلق شئ مهما يكن تافها حقيرا كالذباب وإن تضافروا جميعا على خلقه، بل إن هذا المخلوق التافه لو سلب من الاصنام شيئا من القرابين التى تقدم إليها فإنها لا تستطيع بحال من الاحوال أن تمنعه عنه أو تسترده منه، وما أضعف الذى يهزم أمام الذباب عن استرداد ما سلبه منه، وما أضعف نفس الذباب، كلاهما شديد الضعف، بل الاصنام أشد ضعفا، فكيف يليق بإنسان عاقل أن يعبدها ويلتمس النفع منها؟! النظرة العلمية: لقد جاءت في القرآن آيات نزلت تتحدى العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، وتكرر في القرآن هذا التحدى البيانى الذى كانوا يفتخرون ببراعتهم وتفوقهم فيه فعجزوا عن أن يأتوا بأصغر سورة من مثله، ثم إن القرآن بعد ذلك تحدى الناس جميعا تحديا ماديا أن يخلقوا ذبابة وهى حشرة ضئيلة فلم يقدروا كذلك، واستمر هذا التحدى قائما إلى عصرنا هذا أى بعد أكثر من ألف سنة من نزول القرآن وبعد أن تقدم العلم تقدما هائلا وبلغت التكنولوجيا

ذروتها في التطور والاختراع، فهل تستطيع دولة العلم بعد ما بلغت ما بلغت من التفوق أن يقف الناس أمام هذا التحدي المادى ويصنع ذبابة واحدة؟ ثم يسألهم هل لو بسلبهم الذباب حياتهم بمرض فتاك ينفل جراثيمه إليهم هل يمكنهم استرداد حياتهم؟ إن القرآن الكريم هو كلام الله المعجز حقا قديما وحديثا، وكتابه الذى لا ريب فيه، ونختم كلامنا بأن القرآن معجزة خالدة ولكن إعجازها لا يقتصر على الاسلوب البيانى المعجز وإنما فيما حوى من منهج

[١٢٩]

على تناول حقائق الاكوان والانسان والحيوان والنبات والحشرات وغير ذلك لان القرآن لم ينزل للعرب فقط وإنما نزل للناس كافة وفيهم من لا يعرفون العربية فكيف يكون الاعجاز القرآنى مفهوما لديهم؟ لقد تبين لهم هذا الاعجاز عن طريق المناهج العلمية والتشريعية والاصلاحية التى هى من أسرار الاعجاز العليا للقرآن والتى كلما تجلت علميا زانها الاداء البيانى البليغ والاسلوب القرآنى الرائع في مبناه ومعناه.

قال تعالى في سورة الرعد آية - ٣: ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين).

تفسير علماء الدين: وجعل الله سبحانه من الثمرات الانواع المتقابلة أصنافا منها الحلو والحامض ومنها الابيض والاسود.

النظرة العلمية: يقرر العلم الحديث أن أزهار النباتات على اختلاف أنواعها تنقسم ثلاثة أقسام: أزهار مذكرة وأزهار مؤنثة وأزهار خنثى تجمع الناحيتين من عضو التذكير وعضو التأنيث معا، ومن الامثلة الموضحة لذلك النخيل فمنه نوع مذكر وآخر مؤنث، ونبات الذرة يحمل في وقت واحد أزهارا مذكرة وأخرى مؤنثة ونبات القول له زهرة تجمع بين عضوى التأنيث والتذكير معا

[١٣٠]

وقال الله تعالى في سورة يس آية - ٦٥: (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون).

تفسير علماء الدين: اليوم نغضى على أفواههم فلا تتطرق وتكلمنا أيديهم وتتطرق أرجلهم شاهدة عليهم بما كانوا يعملون).

النظرة العلمية: رأى العلم في هذه الحقيقة الكبرى أن الاعضاء وهى حية ليست مركبة إلا من جزئيات وذرات تكونت وتجمعت فكانت أجساما وسيبعث الانسان على هيئته الاولى كما كان في الحياة بأعضائه جميعا وما انطبع عليها من آثار، وهذه عملية سهلة بالنسبة للخالق القادر الذى يقول في كتابه الحكيم: (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وله المثل الأعلى في السماوات والارض وهو العزيز الحكيم).

وقد أنطق الانسان الجماد في عديد من مخترعاته في الحاكى وفى شرائط التسجيلات الصوتية، ولم يقتصر على هذا بل اخترع جهازا اليكترونيا يقرأ الصحف والمجلات وغيرها من المطبوعات للعميان الذين فقدوا

نعمة الابصار، كما اخترع تليفونا يسجل الرسائل التي تصل إلى صاحبه في أثناء غيابه عن منزله أو عمله ثم يعيد عليه ما سجله عند عودته.

وها هم رجال المخابرات يسجلون أقوال المتهمين آليا وهم لا يشعرون، ويجب أن يعرف كل إنسان أن مخابراتنا موجودة في أجسامنا ومنطبعة في حواسنا

[١٣١]

وكانها شرائط تسجيل، وهي شهود لنا أو علينا يوم الجزاء في المحكمة الكبرى التي لن يكون قاضيه من قضاة البشر إنما قاضيه رب العالمين أحكم الحاكمين.

فإذا كان الانسان هذا المخلوق الضعيف توصل بعلمه المحدود إلى هذه المخترعات فهل يشك أحد في قدرة الخالق على إنطاق أعضاء الجسم بكل أعمالها المسجلة عليها.

وقال تعالى في سورة النحل آية - ٧٠: والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئا إن الله عليم قدير .

تفسير علماء الدين: والله خلقكم وقدر لكم آجالا مختلفة، منكم من يتوفاه مبكرا، ومنكم من يبلغ أرذل العمر فيرجع بذلك إلى حال الضعف إذ تأخذ حيوته في الهبوط التدريجي فيقل نشاط الخلايا وتهن العظام والعضلات والاعصاب فتكون عاقبته أن يفقد كل ماكان عليه، إن الله عليم بأسرار خلقه، قادر على تنفيذ ما يريد.

النظرة العلمية: من عجائب بلاغة القرآن وأسرار إعجازه أنه يأتي بتعبيرات علمية غاية في الدقة ولا يعقلها إلا العالمون، فعبارة - لكيلا يعلم بعد علم شيئا - وهي مكونة من ست كلمات معناها بكل بساطة (ينسى)، وإذا كانت كلمة ينسى تغنى

[١٣٢]

عن الكلمات الست فلم كان هذا الاطناب الذي لا داعي له؟ ولكن الطبيب المختص بالامراض العقلية يبين لنا الفرق بين ينسى وبين لا يعلم من بعد علم شيئا وهذا سر الاعجاز العلمى في هذه القضية العلمية.

وذلك أن الشخص إذا نسى شيئا يمكنه بعد تذكر بعض الظروف أن يستعيد ما نسيه، أما الذى لا يعلم بعد علم شيئا فلا يمكن أن يتذكر مهما حاول ذلك، بل إنه في هذه الحالة قد ينسى اسمه، وهذه حالة من عوارض مرض انسداد شرايين صغيرة في المخ، وهذا الانسداد يكثر كلما تقدم الانسان في السن والذى يقول هذا الكلام بهذا الاسلوب الدقيق جدا علميا هو رب محمد صلى الله عليه وسلم، وهو رب العاملين، وهى كلمات مضيئة بنور العلم الربانى ويسجد أمام إعجازها علماء الطب وغيرهم من ذوى الالباب.

وقال الله تعالى في سورة الانبياء آية - ١٠٤: (يوم تطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين).

تفسير علماء الدين: يوم تطوى السماء كما تطوى الورقة في الكتاب ونعيد الخلق إلى الحساب والجزاء، لا تعجزنا إعادتهم فقد بدأنا خلقهم، وكما بدأناهم نعيدهم، وعدنا بذلك وعدا حقا، إنا كنا فاعلين دائما ما نعد به. النظرة العلمية: لقد وصل العلم أخيرا وبعد جهاد شاق في الدراسات والابحاث وبعد استعمال

[١٣٣]

أدق الآلات من مجاهر ومحللات والطيف إلى أن هذا الكون الذى نعيش فيه قد بدأ من كتلة من السحاب تفجرت واتسعت لتكون وحدات الكون من مجرات وغيرها، وأنها لا بد ستعود إلى التراجع لتعود كما كانت أول الخلق، وأن هذه السماوات المتسعة لا بد وأن تطوى يوما لتصبح كما كانت أول مرة وأنه بذلك يكون فناء الكون، وقد يشاء الله المبدع فيخلق كونا جديدا لخلق آخرين، وقد جاء نص صريح عن فناء الكون في قوله تعالى: (فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر ويقول الانسان يومئذ أين المفر) أى أنه يحدث وقت التحام الشمس والقمر أى وقت حدوث اضطراب بين النجوم والكواكب وتوابعها وتصادمها وتحطيم بعضها بعضا.

وقال تعالى في سورة الحديد آية - ٢٥: وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) تفسير علماء الدين: وخلقنا الحديد فيه عذاب شديد في الحرب ومنافع للناس في السلم يستغلونه في التصنيع لينتفعوا به في مصالحهم ومعاشهم).

النظرة العلمية: الحديد أكثر الفلزات (المعادن) انتشارا في الطبيعة فيوجد أساسا في الحالة المركبة على هيئة أكاسيد وكبريتيد و كربونات و سلكات، وتوجد كذلك مقادير صغيرة من الحديد الخالص في الشهب والنيازك الحديدية، وقد أشارت الآية إلى أن الحديد ذو بأس شديد ومنافع للناس وليس أدل على ذلك من امتياز الحديد

[١٣٤]

وسبائكه المتنوعة بخواص متعددة ومتفاوتة الدرجات في مجال الحرارة والشد والصدأ والبلى وفى تقبل المرونة والمغناطيسية وغيرها، ولذلك كان أنسب الفلزات لصناعة أسلحة الحروب وأدواتها وأساسا لجميع الصناعات الثقيلة والخفيفة التى هى دعامة للحضارات المادية، وللحديد منافع أخرى جمة للكائنات الحية إذ تدخل مركبات الحديد في عملية تكوين الكلوروفل وهو المادة الاساسية في عمليات التمثيل الضوئى التى ينشأ عنها تنفس النباتات وتكوين البروتوبلازم الحى وعن طريقه يدخل الحديد جسم الانسان والحيوان ومن ذلك نجد أن الحديد له شأن خطير في الحياة، ولذا سميت سورة باسمه في القرآن للاشادة بأهميته.

وقال تعالى في سورة النور آية - ٤٠: (أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور).

تفسير علماء الدين: ظلمات في بحر واسع عميق متلاطم بالأمواج التي يعلو بعضها فوق بعض ويغطيها سحب كثيف يحجب النور عنها ولا يستطيع راكب البحر معها أن يرى يده، ومن لم يوفقه الله لنور الايمان فليس له نور يهديه إلى الخير.

النظرة العلمية: تجمع هذه الآية أهم ظواهر عواصف البحر وأمواجه، فالمعروف أن عواصف

[١٣٥]

البحار العميقة تتطلق منها أمواج مختلفة الطول أو السعة أو الارتفاع بحيث يبدو الموج منطلقاً في طبقات بعضها فوق بعض فيحجب ضياء الشمس لما تثيره هذه العواصف من سحب ركامية سمكية يخيم معها الظلام في سلسلة من عمليات الاعتماد التي تصل إلى حد انعدام رؤية الاجسام، ولما كانت نشأة الرسول صلى الله عليه وسلم في البادية حيث قضى طول حياته في الصحراء بعيداً عن البيئة البحرية فإن ورود هذه الدقائق العلمية عن الظواهر البحرية على لسانه وحيا من الله تعالى دليل على أن القرآن الكريم من عند الله، وعلى أنه معجزة هذا الرسول الكريم.

وقال تعالى في سورة الانعام آية - ١٥، ١٦: (إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ذكركم الله فأنى تؤفكون، فالق الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم).

تفسير علماء الدين: إن الله بقدرته يشق الحب ويخرج منه النبات، ويشق النوى ويخرج منه الشجر، ويخرج الحي من الميت كالإنسان من التراب، ويخرج الميت من الحي كاللبن من الحيوان ذلك القادر العظيم هو الإله الحق فليس هناك صارف يصرفكم عن عبادته إلى عبادة غيره.

النظرة العلمية: نرى النظرة العلمية في الآيتين معا أن هناك علاقة وطيدة بين قوله تعالى فالق

[١٣٦]

الاصباح وفالق الحب والنوى فظهور الضياء بانفلاق الصباح من الظلام هو في حد ذاته عنصر أساسي في نمو النبات والأشجار وهو الضوء، وذلك أن الحب والنوى بعد أن ينفلق كل منهما يحتاج إلى غذاء ينميها، وهذا الغذاء يتكون من عناصر الأرض ومن ضوء الشمس، فضاء الشمس يقوم بعملية التمثيل الكلوروفلى الذى تنتج عنه المادة الخضراء اللازمة لتكوين المادة الغذائية داخل عروق النبات وفى ذلك دلالة على أن الحي من النبات يستمد حياته من الأرض ومن الضياء وهما شيئان ميطان.

وقال الله تعالى في سورة يونس آية - ٦١: (وما يعزب عن ربك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين).

تفسير علماء الدين: إن الله جل جلاله لا يغيب عن علمه شئ في وزن الذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من هذا ولا أكبر منه إن ذلك كله يسجل في كتاب عند الله واضح بين.

النظرة العلمية: كان الاعتقاد السائد قديماً أن الذرة هي أصغر شيء يتصور عقل الإنسان وجوده من المادة، وأنه لا شيء أصغر منها حجماً ووزناً، ولكن العلم أثبت أن الذرة تلك الشيء الضئيل الذي لا تراه العين مادة قابلة للتجزئة، وهذا ما نطق

[١٣٧]

به القرآن قبل الكشف العلمية الحديثة التي توصل إليها الإنسان في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وقد تحقق قول القرآن بأن الذرة يمكن تحطيمها وأن ذلك التحطيم الصناعي لها قد أوجد منها قوة رهيبية يمكن استخدامها لدمار العالم أو عماره، وكل هذه الحقائق مسجلة في كتاب الله وعلمه المحيط بكل شيء فيه لأنه هو الذي لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء.

الذرة في أوائل القرن العشرين ظهر أن بعض المواد كالراديوم واليورانيوم تتجزأ من تلقاء نفسها وتخرج منها جسيمات ذات كهرباء موجبة تسمى (ألفا) وجسيمات ذات كهرباء سالبة تسمى (بيتا) وأشعة تسمى (جاما)، وقد توصل العلماء إلى وصف الذرة بأنها شيء ضئيل جداً يتكون من نواة مركزية مشحونة بشحنة كهربائية موجبة تدور حولها جسيمات صغيرة جداً مشحونة شحنة سالبة، وتسمى هذه الجسيمات الكتلونات بينها وبين النواة تجاذب، وقد توصل العلماء إلى تحطيم الذرة تحطيماً صناعياً، وقد نشأت عن تحطيمها قوى هائلة ذات حدين أحدهما خطر مدمر والآخر صالح معمر.

قال تعالى في سورة الحجر آية - ٢٢: وأرسلنا الرياح لوائح فأنزلنا من السماء ماء فاسقيناكموه وما أنتم له بخازنين). تفسير علماء الدين: لقد أرسلنا الرياح حافلة بالأمطار وحاملة بذور النباتات وأنزلنا منها المياه وجعلناها سقياً لكم، ولا يقدر أن يتحكم منكم أحد في تخزينه.

[١٣٨]

النظرة العلمية: تبين لنا الآية إعجازاً علمياً غاية في الدقة والاحكام فهي تدل على أن الرياح أثناء هبوبها تحمل في طياتها حبوب اللقاح التي تأخذها من زهرة لتلقى بها في مبيض زهرة أخرى فيكون على أثر ذلك التلقيح بين النباتات، كما أن الرياح علاوة على ذلك تحدث تلاقحاً بين السحب المكهربة بالسلب والإيجاب فينتج عن ذلك البرق والرعد والمطر، والمطر عندما يسقط على الأرض بخصبها وتحية مواتها، وهذا هو التلقيح بأوسع معانيه في الطبيعة.

[١٣٩]

آيات في عالم الحيوان والحشرات وغيرها من المخلوقات لها مدلول علمي قال تعالى في سورة النور آية - ٤٥: (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه، ومنهم من يمشى على رجلين، ومنهم من يمشى على أربع يخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير).

تفسير علماء الدين: والله خلق كل دابة على وجه الارض من ماء الذكر والانثى فمنهم من يمشى على بطنه مثل الحية وأشباهاها، ومنهم من يمشى على رجلين مثل الانسان وأشباهاه ومنهم من يمشى على أربع مثل الدواب، ويخلق الله ما يشاء إنه على كل شئ قدير.

النظرة العلمية: تنظر عين العلم الباحثة الفاحصة إلى هذه الآية الكريمة على أنها دليل قائم على أن مصدر كل ما في العالم من كائنات حية هو الخلية الحيوانية المكونة من الماء الذي جعل الله منه كل شئ حي من نبات وحيوان، ثم أنشأت في مملكة الحيوان أنواعا شتى منها ما يمشى على بطنه كالزواحف وما يمشى على رجلين كالانسان وما يمشى على أربع كالدواب، وقد ألف الناس رؤية هذه الحيوانات فلم يتغير عجبهم منها، ولكن العلماء المشتغلين بعلوم الاحياء يرون فيها مع الفحص والملاحظة والتشريح من عجائب الخلق ودقة الصنع ما يقوى إيمانهم

[١٤٠]

بقدره الله البديع الذى أتقن كل شئ أراد خلقه بصورة تذهل العقول فتبارك الله أحسن الخالقين. ومما يدل على روعة الخلق وحكمته تعالى في إبداعه لها قوله تعالى: (هو الذى يصوركم في الارحام كيف يشاء ألا هو العزيز الحكيم) (الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تفيض الارحام وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار) (وفي خلقكم وما يدب من دابة آيات لقوم يوقنون) قال تعالى في سورة الانعام آية - ٣٨ (وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحين إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شئ ثم إلى ربهم يحشرون).

تفسير علماء الدين: ليس في الارض من حيوان يدب في ظاهر الارض وباطنها، أو طائر يطير بجناحيه في الهواء إلا خلقها الله جماعات تماثلكم وجعل لها خصائصها ومميزاتها ونظام حياتها، ما تركنا في الكتاب المحفوظ عندنا شيئا من الاشياء إلا أثبتناه وإن كانوا قد كذبوا فسوف يحشرون مع كل الامم للحساب يوم القيامة.

[١٤١]

النظرة العلمية: لقد اكتشف علماء الحيوان الذين يدرسون حياته الاجتماعية سواء منها ما تسعى في الارض أو تطير في السماء أو تسبح في الماء أنما هي شعوب وقبائل وأمم تربطها صلات وعلاقات وثيقة فهي لا تختلف في أسلوب حياتها ونشاطها عن أمم البشر الذين يعمرن الارض، وقد ألف علماء علم الاحياء مؤلفات كثيرة تبين نتائج ما وصلوا إليه من معلومات وحقائق عن نظام كل نوع من الحيوان والحشرات في حالة السلم والحرب وفي السعى لطب الغذاء وفي رعاية الصغار والضعفاء وما تلجأ إليه من حيل في التغلب على ما يواجهها من مصاعب وأخطار وفي انقيادها لما هيأه لها الخالق العظيم من أعمال تتلاءم مع بيئتها وبنيتها، والاهداف التى خلقت لها ويقول سبحانه وتعالى في سورة النحل (آية ٦ - ٩) تبياناً

لذلك: (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق النفس إن ربكم لرءوف رحيم، والخيول والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون) وقال الله في سورة البقرة آية - ١٦٤: (إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء ماء فأحيا به الارض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون).

[١٤٢]

تفسير علماء الدين: إن من دلائل قدرة الله هذه السماوات التي ترونها تسير فيها الكواكب بانتظام، والارض وما فيها من البر والبحر وتعاقب الليل والنهار وما يجرى في البحر من السفن تحمل الناس والمتاع ولا يسيرها إلا الله فهو الذى يرسل الرياح لتسييرها، وهو الذى ينزل المطر يسقى النبات والحيوان، والسحاب المعلق بين السماء والارض، وكل هذه الآيات قامت بكل إحكام وإتقان بقدرة الله الذى لا يعجزه شئ ويدرك حقائقها المتدبرون العاقلون.

النظرة العلمية: تتجلى في هذه الآية مجموعة من العلوم الطبيعية التي بحث العلماء المتأخرون في موضوعاتها ووجدوا من القرآن خير مرشد للتفكير فيها، فقد أشارت إلى علم الفلك ونشأة الكون في قوله تعالى (خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار) وأشارت إلى علم الملاحة البحرية في قوله تعالى، (والفلك التي تجرى في البحر).

وأشارت إلى علم النبات والزراعة في قوله تعالى: (فأحيا به الارض بعد موتها) وأشارت إلى علم الحيوان في قوله تعالى (وبث فيها من كل دابة).

وأشارت إلى علم الارصاد الجوية في قوله تعالى: (وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض) وقد أدى التفكير فيها إلى معرفة نواميسها ومقوماتها ونظامها، فسبحان من هذا كلامه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ويهdy إلى سواء السبيل، ويوجه عقل الانسان وقلبه إلى ملك الله يتأمله ليرى قدرته وحكمته وتدبيره الرائع في صنعه.

[١٤٣]

وقال الله تعالى في سورة المؤمنون آية - ١٨: (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الارض وإنا على ذهاب به لقادرون).

تفسير علماء الدين: وأنزلنا من السماء مطرا بحكمة وتقدير في تكوينه وإنزاله وتيسيرا للانتفاع به جعلناه مستقرا في الارض على ظهرها وفي جوفها وإنا على إزالته وعدم الانتفاع به لقادرون.

النظرة العلمية: توجه هذه الآية النظر إلى المطر الذى ينزل من السماء وكيف أنه يتكون نتيجة تبخر مياه المحيطات والبحار بحرارة الشمس وارتفاع هذه الأبخرة لخفتها ثم تجمعها في السماء على شكل سحب لا تلبث أن تبرد ثم تتكاثف ويسقط منها مطرها بمائه العذب على سطح الأرض مكونا بانحداره السريع من فوق الجبال والهضاب التي يسقط عليها أخاديد في الأرض تجرى فيها مكونة الأنهار لتروى الحقول وتخصبها، وإن من مياه الأمطار ما يتسرب إلى باطن القشرة الأرضية ويستقر بها مكونا المياه الجوفية التي توجد أحواضها في باطن بعض صحاروات العالم القاحلة والتي تخرج منها العيون والآبار لأمداد الإنسان والحيوان بالماء، والله سبحانه قد جعل هذه الدورة المائية بين السماء والأرض متكررة بانتظام دائم، ولو شاء ربك لأوقفها ولكنه رب رحيم كتب على نفسه الرحمة ولا يترك عباده للهلاك، ويؤيد هذا الفضل من الله تعالى قوله تعالى في آيات أخرى: (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر) (القمر آية - ١١، ١٢)

[١٤٤]

وقوله تعالى: (أنزل من السماء ماء فسالأت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا) (الرعد آية - ١٧) وقوله تعالى: (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) (البقرة آية ٢٣) وقال تعالى في سورة الرعد آية ٤: (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون).

تفسير علماء الدين: من عجائب قدرة الله أن في الأرض قطع يجاور بعضها بعضا، وهي مختلفة التربة بعضها قاحل وبعضها خصب وإن اتحدت التربة، ففيها حدائق مملوءة بكروم العنب، وفيها زرع يحصد، ونخيل مثمر وهي مجتمعة ومتفرقة، ومع أنها تسقى بماء واحد يختلف طعمها، وإن في ذلك دلائل واضحة على قدرة الله تعالى لمن له عقل يفكر به.

النظرة العلمية: يقرر علماء الجيولوجيا وهو علم طبقات الأرض أن تربة القشرة الأرضية

[١٤٥]

التي تحطمت وتفتتت بفعل عوامل التعرية من رياح وعواصف وأمطار جعلتها لا تتحد في عناصرها بل صار لكل تربة طبيعتها وخواصها الذاتية، ويقرر علماء النبات أن جذور النباتات تمتد في التربة لتمتص الغذاء من عناصرها الملائمة لها وتحولها إلى ثمار يتميز بعضها عن بعض في الشكل والطعم والرائحة، وهذا هو المعنى العلمى الذى تشير إليه الآية بأن قطعة الأرض الواحدة تتكون من عدة أجزاء متجاورة ومتلاصقة ولكنها تشمل في تكوينها مواد معدنية أو عضوية أو بكتيرية مختلفة، وعندما تسقى قطعة الأرض الواحدة نجد أن ثمارها متنوعة لأن بها أجزاء طينية وأخرى رملية إلى ثلاثة كلية وأن كلا منها يختلف عن

الآخر اختلافا تاما وعند ما تسقى قطعة الارض نجد أن ثمارها متنوعة في أشكالها وألوانها وطعومها من عنب وخضر ونخل ورمان مع أنها كلها سقيت بماء واحد.

وقال تعالى في سورة الرعد آية - ٣: وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون).

تفسير علماء الدين: هو سبحانه الذى بسط لكم الارض وجعلها دولا تسيرون فيها شرقا وغربا، وجعل في هذه الارض جبالا ثابتة وأنهارا تجرى فيها المياه العذبة وجعل من هذه المياه الثمرات المختلفة التى؟ توالد، وجعل منها الانواع المختلفة المتقابلة أصنافا منها الحلو والحامض، ومنها الابيض والاسود، وأنه سبحانه يستر النهار بالليل، وأن في هذا الكون وعجائبه لعلامات بينة تثبت قدرة الله العظيم ووحدانيته لمن يتفكر ويتدبر.

[١٤٦]

النظرة العلمية: في طيات هذه الآية الكريمة ثلاث حقائق أيدها العلم بدلائل قوية وهى:
أولا أن الله مد الارض وجعل فيها رواسى، ومد الارض أى يسطها أينما سار الانسان عليها وقد سبق القول في بيان ذلك عند شرح قوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها والتعبير بلفظ دحاها يدل على الاستدارة مع البسط في نفس الوقت.

ثانيا أنه سبحانه جعل في الارض رواسى أى جبالا لتحفظ التوازن اللازم للكرة الارضية التى تتكون من منخفضات عميقة في البحار والمحيطات ومرتفعات شامخة من الجبال والهضاب، وأنه لا بد في هذه الحالة من استقرار للارض واتزان لانتظام حركتها مع ثباتها، وقد أثبتت الابحاث العلمية نظرية التوازن في الكرة الارضية بالبراهين الدامغة.

ثالثا - أنه سبحانه جعل من كل الثمرات زوجين اثنين، أى جعل في الاشجار التى تحمل الثمار نوعى الذكر والانثى حتى يتم تلقيح الاعضاء الانثوية بطريق حبوب اللقاح الموجودة بالاعضاء الذكرية وبذلك تتوالد الانواع وتتكاثر.

وقال تعالى في سورة الرعد آية - ٢: (الله الذى رفع السموات والارض بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون).

تفسير علماء الدين: إن الله هو الذى رفع ما ترون من سماوات تجري فيها النجوم بغير أعمدة ترى ولا يعلمها إلا الله، وإن كان قد ربط بينها وبين الارض بروابط لا تنقطع

[١٤٧]

إلا أن يشاء الله، وذلل الشمس والقمر بسلطانه ولمنفعتكم، وهما يدوران بانتظام لزمن قدره الله سبحانه وتعالى، وهو سبحانه يدبر كل شئ في السموات والارض، ويبين لكم آياته الكونية رجاء أن توقنوا بالوحدانية.

النظرة العلمية: كلما نظر الانسان إلى نجوم السماء وكواكبها يراها متماسكة وثابتة في مواضعها وهي سابحة في أفلاكها طبقا لنظام بديع لا تحيد عنه أبدا، وقد فسر العلم هذه القوة الكونية التي تحفظ السماء والارض والكون من التفكك وتصونه من الاضطراب والخلل بأنها قوة الجاذبية التي اكتشفها عالم رياضيات انجليزي هو نيوتن في أوائل القرن السابع عشر عند ما لاحظ يوما أن تفاحة سقطت من شجرتها على الارض، فأخذ يفكر في أسباب سقوطها هي وغيرها من الاجسام التي تقع تلقائيا على الارض، وهداه تفكيره العميق إلى الوصول إلى استنباط نظرية الجاذبية واستطاع أن يضع لها قوانين دقيقة أثبت صحتها بالتجارب العلمية، ووضح بما لا يقبل الشك أن هناك علاقة بين كتل الاجسام المتجاذبة وبين المسافات التي بينهما، وقد ساعد قانون الجاذبية علماء الفلك على فهم الكثير من الحقائق الكونية التي كانت مجهولة تماما من قبل. ويؤيد قانون الجاذبية هذا وأثره في تماسك الاكوان قوله تعالى في سورة فاطر آية - ٤١: (إن الله يمسك السماوات والارض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا) وتدل هذه الآية على أن الله سبحانه هو الذي يمنع اختلال نظام السموات [١٤٨]

والارض ويحفظهما بقدرته من الزوال، ولئن قدر لهما الزوال ما استطاع أحد أن يحفظهما. وقال تبارك وتعالى في سورة الانعام آية - ٩٧: (وهو الله جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون). تفسير علماء الدين: هو الله الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بمواقعها إلى مقاصدكم وأنتم سائرون في ظلمات الليل بالبر والبحر، إنا قد بينا دلائل رحمتنا وقدرتنا لقوم ينتفعون بالعلم. النظرة العلمية: لقد ثبت بالملاحظة العلمية الدقيقة وبالمناظير المقربة أن النجم القطبي هو أحد نجوم السماء التي تبعد عنا بآلاف الملايين من الاميال، وأنه يبعد عن الكرة الارضية بنحو ٣٠٠ سنة ضوئية، لوحظ أن هذا النجم يقع جهة الشمال دائما بالنسبة لسكان نصف الكرة الشمالي، أي أننا إذا اتجهنا نحوه تكون جهة الشمال أمامنا وجهة الجنوب خلفنا وجهة الشرق على يميننا وجهة الغرب على يسارنا، وبواسطة هذا النجم يمكننا أن نعرف مواضع الاماكن على سطح الكرة الارضية سواء كنا في سفر أو حضر، وقد استطاع الفلكيون بوسائلهم وأجهزتهم العلمية وحساب المثلثات أن يرصدوا أكثر النجوم ويعملوا لها جداول تبين مواقعها بالنسبة للارض لتكون مرشدا للمسافرين في البر والبحر وفي رحلات الفضاء إلى الكواكب، فسبحان الذي خلق هذا الكون الهائل في اتساعه الشاسع وفي امتداده الذي

[١٤٩]

لا نهاية له وأنه سبحانه برحمته وعونه يهيئ لنا سبل الاهتداء فيه ليلاً بالنجوم ونهاراً بالشمس إلى مقاصدنا وقد امتن علينا في ذلك بقوله تعالى أيضاً: (وعلامات وبالنجم هم يهتدون). وقال تعالى في سورة المؤمنين آية - ١٨ (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون).

تفسير علماء الدين: وأنزلنا من السماء مطراً بحكمة وتقدير في تكوينه وإنزاله وتيسيراً للانتفاع به وجعلناه مستقراً في الأرض على ظهرها وفي جوفها وإنا على إنزاله أو إزالته وعدم الانتفاع به لقادرون. النظرة العلمية: تشير هذه الآية وأمثالها إلى ظاهرة نزول المطر من السماء، وقد أثبت العلم أن المطر هو نتيجة تبخر مياه المحيطات والبحار بحرارة الشمس وارتفاع بخار الماء إلى طبقات الجو العالية الباردة وتجمعها على شكل سحب تتكاثف ويسقط مطرها بالماء العذب على الأرض، وعندما يسقط المطر الغزير على الجبال والهضاب فإنه ينحدر منها بشدة إلى السهول مكوناً فيها مجاري وأودية للأنهار التي تحيي الأرض وتنبت الزرع، ومن مياه الأمطار ما يتسرب إلى باطن الأرض مكوناً المياه الجوفية التي تتجمع في أحواض واسعة للمياه الباطنية التي تنفجر منها العيون وتتيق منها الآبار بحسب تضاريس الأرض، وقد جعل الله سبحانه هذه الدورة المائية بين السماء والأرض مستمرة بانتظام دقيق وتقدير معلوم لا يزيد ولا ينقص ليفي بحاجة الإنسان

[١٥٠]

والحيوان والنبات، ولو شاء الله أن يوقف هذه الدورة لفعل، والله سبحانه رحيم بعباده، ويؤكد رحمته هذه بقوله تعالى في آيات الآتية: (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر) (القمر آية - ١١) (أنزلنا من السماء ماء فسال أودية بقدرها) (الرعد آية - ١٦) (وأنزل من السماء ماء فأخرج من الثمرات رزقا لكم) (البقرة آية ٢٢) وقال تعالى في سورة الرعد آية - ٤: (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) تفسير علماء الدين: في الأرض قطع يجاور بعضها بعضاً وهي مختلفة التربة، بعضها قاحل وبعضها خصب وإن اتحدت التربة ففيها حدائق مملوءة بكروم العنب وفيها زرع يحصد ونخيل مثمر وهي مجتمعة ومتفرقة، مع أنها تسقى بماء واحد يختلف طعمها وفي ذلك دلالة على قدرة الله تعالى لمن له عقل يفكر به.

النظرة العلمية: يقرر علم طبقات الأرض أن تربة القشرة الأرضية وهي الطبقة التي تحطمت وتفتتت بفعل عوامل التعرية من رياح وأمطار لا تتفق عناصرها وطبيعتها في كل جزء منها بل تختلف من مكان إلى مكان، كما أن علم النبات يقرر أن جذور

[١٥١]

النبات هي التي تمتد في التربة وتمتص منها العناصر الملائمة لنموها ونضجها بحيث يكون لكل ثمرة شكلها ولونها وطعمها المميز لها، وهذا هو المعنى العلمى الذى تشير إليه الآية الكريمة على إيجازها وهي أن قطعة الارض الواحدة تتكون من أجزاء متلاصقة الجوار ولكنها تشمل بقعة طينية وأخرى رملية وثالثة كلسية وكل واحدة منها إما أن تكون ذات مواد معدنية أو عضوية أو بكتيرية وعندما تسقى هذه الارض بماء واحد فإنها تنتج ثمارا متغايرة في شكلها ولونها وطعمها ويفضل بعضها بعضا في الاكل.

وقال تعالى في سورة النحل آية - ٦٨: (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون).

تفسير علماء الدين: ألهم ربك النحل أسباب حياتها ووسائل معيشتها بأن تتخذ من الجبال بيوتا في كهوفها وتتخذ من فجوات الشجر ومن عرائش المنازل والكروم بيوتا لها كذلك.

النظرة العلمية: إن بعض العلماء الذين كرسوا جهودهم لدراسة حياة الحشرات وقفوا على حقائق عجيبة وألفوا مئات الكتب التى أثبتت صحة ما جاء في القرآن من أن هناك فصائل برية من النحل تسكن الجبال وتتخذ من مغاراتها مأوى لها، وأن منه سلالات تتخذ من الاشجار سكنا بأن تلجأ إلى الثقوب الموجودة في جذوع الاشجار وتتخذ منها بيوتا تأوى إليها، ولما أراد الانسان أن ينتفع بعسل

[١٥٢]

النحل استأنسها وصنع لها خلايا من الطين أو الخشب يعيش فيها وهكذا تبين الآية الكريمة كيف كانت هذه الحشرات بإلهام من الله تأوى إلى مساكنها المختلفة منذ القدم إلى يومنا هذا.

وقال تعالى في سورة النحل آية - ٦٩: (ثم كلّى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون).

تفسير علماء الدين: في هذه الآية بيان لإلهام الله للنحل أن تأكل من ثمرات الشجر والازهار وسهل الله لها أن تسلك لذلك طرقا هيأها لها الله وجعلها مذللة سهلة، فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن في ذلك الصنع العجيب لادلة قوية على وجود صانع قادر حكيم ينتفع بها قوم يستعملون عقولهم بالتأمل فيفوزون بنعمة السعادة الدائمة.

النظرة العلمية: تدل الدراسات المستفيضة لمملكة النحل أن إلهام الله لها يجعلها تطير لارتشاف رحيق الازهار فتبتعد عن خليتها آلاف الامتار ثم ترجع إليها ثانية دون أن تخطئها وتدخل خلية أخرى غير خليتها، علما بأن الخلايا في المناحل تكون مرصوفة بعضها إلى جوار بعض، وذلك لان الله سبحانه سهل أمامها طرقها وذلّلها لها بنوع من الاحساس الكهربى المغناطيسى في جسمها، وبعد أن يجمع النحل رحيق الازهار

في جوفه يتحول هذا الجوف إلى مصنع يجعل من هذا الرحيق شرابا فيه شفاء للناس، وتلفظ النحلة عسلها عن طريق فمها لا عن

[١٥٣]

شرحها، وفي قوله تعالى (شراب مختلف ألوانه) إشارة إلى أن لون العسل يختلف بحسب لون الأزهار التي يرتشف النحل رحيقها، فالعسل الناتج من رحيق أزهار القطن يكون قاتم اللون بخلاف عسل أزهار البرسيم فهو فاتح اللون، ثم إن وصف القرآن لعسل النحل بأن فيه شفاء للناس هو حقيقة علمية أثبتتها التحاليل لهذه المادة لأنها تجمع عدة عناصر متنوعة الأهمية في التغذية والعلاج فضلا عن أنه الغذاء الوحيد المعقم طبييا وأنه قاتل للميكروبات ومبيد للجراثيم بسبب احتوائه على مواد داخلية في تركيبه للقضاء عليها، فهل للإنسان أن يتأمل ذلك ويفكر في قدرة الله الذي يعلم السر في السماوات والأرض ولا يخفى عليه شيء؟! .

وقال الله تبارك وتعالى في سورة النحل آية - ٦٦: (وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين).

تفسير علماء الدين: إن لكم أيها الناس في الأنعام وهي الأبل والغنم لموعظة تعتبرون بها وتنتقلون في هداها من الجهل إلى العلم بالصانع المبدع الحكيم ويسقيكم من بعض ما في بطونها من بين فضلات الطعام (وهو الفرث) والدم لبنا صافيا لذيذا سهل التناول للشاربين.

النظرة العلمية: توجه الآية عقولنا إلى الاعتبار بما في حكمه الله تعالى من إبداع بما في خلقه وروعة في صنعه حيث جعل اللبن يخرج من بين فرث (وهو فضلات

[١٥٤]

الطعام) وبين الدم، وهذا يوضح ما كشف عنه علم وظائف الأعضاء في الأجسام من أن الجهاز الهضمي للحيوان يقوم بهضم الطعام وامتصاص الصالح منه وتحويله إلى دم يجري في الأوعية الدموية لتغذية الجسم، ومن هذا الدم ما يصل إلى إلى ضرع الحيوان حيث تبدأ الغدد اللبنية في هذا الضرع تستخلص من الدم العناصر اللازمة لتكوين اللبن، وذلك بعد أن تنصب عليه عصارات خاصة تحيله إلى لبن له مذاقه ولونه الخاص، ويخرج هذا اللبن من بين الفرث والدم سائغا لذيذا للشاربين ف سبحانه الله الذي يجعل غذاء الحيوان من حشائش وحبوب تتحول إلى لبن هو خير غذاء للإنسان والحيوان لأنه غني بكل ما يحتاج إليه الجسم من عناصر ضرورية لحياته وصحته.

وقال الله تبارك وتعالى في سورة يس آية - ٨٠: (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون).

تفسير علماء الدين: الله جل جلاله هو الذي جعل لكم بتدبيره وحكمته من الشجر الأخضر بعد أن يجف ويبس نارا تستعملونها وقودا.

النظرة العلمية إن وراء هذه الآية حقائق علمية رائعة تدل على إعجاز القرآن العلمي في تقريره أن الشجر الأخضر هو مادة الوقود أى مادة الطاقة التى هى عصب الحياة الصناعية في عالمنا المعاصر، فقد دلت الابحاث الجيولوجية على أن الفحم الحجرى والبتروى والغازات القابلة للاشتعال تستخرج كلها من باطن الارض، وذلك لان النباتات والاشجار والغابات التى نمت فوقى سطح الارض في قديم الازمان الجيولوجية

[١٥٥]

أتت عليها ظروف متعاقبة من اضطرابات وانكسارات وتقلبات في القشرة الارضية جعلت تلك الغابات والاشجار تتطمر في باطن الارض، وتتعرض بعد ذلك لضغوط قوية وحرارة شديدة فتحوّلت من أشجار خضراء إلى فحم حجرى وبتروى وغازات وهى من مواد الطاقة التى تستخدم ناراها وحرارتها في الطهى والانارة والتدفئة وإدارة المصانع فسبحان الله القادر الذى هيا لحياة الانسان على سطح الارض مواد نافعة من باطنها بعد أن تحوّلت من شجر أخضر إلى فحم أسود وبتروى وغازات.

وقال تبارك وتعالى في سورة النمل آية - ١٨: (حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون).

تفسير علماء الدين: حتى إذا بلغوا وادى النمل قالت نملة: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لكيلا لا يميتمكم سليمان وجنوده وهم لا يحسون بوجودكم.

النظرة العلمية: صرحت الآية الكريمة بأن نملة تكلمت لكى تحذر جماعتها من خطر قد يدهمها، وفى ذلك دليل على أن النمل له لغة يتخاطب ويتحدث بها وهذا ما أثبتته الابحاث الحديثة بوسائلها العلمية الدقيقة عن حياة النمل الاجتماعية القائمة على التفاهم فيما بينها، وأن مجتمع النمل له كما لسائر الكائنات الحية لغة وأنها تتجاذب بها أطراف الحديث بكلام خاص أو بإشارات مسموعة أو غير ذلك مما علمه الله لنبيه سليمان عليه السلام، ويتفاهم النمل بعضه مع بعض في كل ما يتصل بشئونها المختلفة، والنمل

[١٥٦]

كما شهود في مختلف بيئاته يقوم بمشروعات جماعية مثل مد الطرق وإقامة الجسور وبناء مستعمراته، ولا يمكن أن يتم التعاون على إنجاز هذه الاعمال إلا بالتفاهم بلغة متداولة بينها، وكل الذين دراسو حياة النمل وشاهدوا ما عليه حياة النمل من النظام الدقيق في بناء مساكنها وما عليه أفرادها من الذكاء والدهاء وسعة الحيلة وحب العمل والدأب الذى لا يعرف الكلل، ثم إن النمل هو الوحيد الذى يتلاقى في مجتمعات للتعارف وتبادل المنافع، كما أنه هو الوحيد من بين سائر الحشرات الذى يهتم بدفن موتاه وغير ذلك مما يدل على حياة منتظمة حية نشطة لها كيان ودستور يحكمها في كل سلوكها.

وقد أدعشتنى هذه المعلومات الرائعة عن حياة النمل والنحل التى قرأتها في بعض المؤلفات فدعانى ذلك أن أنوه بشأنها في كتابى (مع الله) في باب قدرة الله تعالى فقللت بأسلوب الشعر المنشور أى الشعر الحر ما يأتى:

إنها دول يدهشك نظمها ويروعك قيام الحياة فيها بالقسط والميزان فلا شئ في مجتمعها يدل على مظاهر الاثرة أو الجشع أو الفقر أو الحرمان وتعجب إذا رأيت أن دستورها الملهم لها يسوده التعاون فلا أثرة ولا طغيان ولكل فرد من أفرادها عمل معين يتفرغ له ولكل حقه من الخير والامان فالملكة في مقصورتها موضع احترام وعليها أن تبيض بما فيه الكفاية من السكان وحولها الشغالات تعمل بجد وتنقل البيض بكل عناية إلى موضع التفريخ والحضان فإذا ما خرجت الحوريات من بيضها تعهدتها بالرعاية أيدي المربيات والقيان ولكل منها قرى محصنة بأقوى المباني المؤسسة على أمتن القوائم والجدران وفيها جنود بوسائل على أهبة الاستعداد دائما للنجدة وصد المغير على الاوطان جنود لهم رؤوس مخيفة المنظر ولها فكوك كأنها مخالبا السباع أو السنان وما داهم طارق حماهم بشر إلا برزت جموع إثر جموع مستعدة للنزال والطعان وتحولت الشغالات إلى جنود تدافع عن العجايز والمرضى وتحمي صغار الولدان

[١٥٧]

وانقلبت بعضها إلى ممرضات خلال القتال تنقل الجرحى بعيدا عن معارك الميدان ماذا يقول الفكر في هذه المشاهد العجيبة وهي تتكرر في كل زمان ومكان يا رب ماذا يقول المتأمل كلما رأى مشاهد الروعة الباهرة في صنعك البديع؟ وكلما تدبر حكمتك في إيجاد هذه المخلوقات وإمدادها بهذا الالهام الرفيع إن المؤمن المتعبد ليقف أمام هذه الآيات موقف الاجلال لقدرتك في خشوع وينطق لسان حاله بالتسبيح ونحن جوارحه إلى التمجيد في سجود وركوع وحق لعينه أن تذرف دمعها حنيئا إلى من عمت رحمته الافراد والجموع ولا خلاص لنا ونحن نعيش في معترك تتصارع فيه قوى الشر بجبروتها المريع إلا أن نضرع إليك طالبين منك رحمتك لانها هي حصننا الواقى المنيع وقال تعالى في سورة العنكبوت آية - ٤١: (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أو هن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون).

تفسير رجال الدين: مثل هؤلاء الذين اتخذوا الاصنام آلهة يعبدونها ويعتمدون عليها ويرجون نفعها كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتا واهنا من نسجها لا يغنى عنها في حر ولا قر ولا مطر ولا أذى.

النظرة العلمية: إن الاعجاز العلمى كل الاعجاز في هذه الآية الكريمة يتجلى بأجلى معانيه في لفظة (اتخذت) بصيغة الفعل المؤنث وهي إشارة علمية في غاية الروعة والدقة للدلالة على أن ما يقوم ببناء بيوت العناكب هي الانثى منه، وأن الذكر من العناكب لا شأن له بذلك، وهذه حقيقة ما كان أحد مطلقا يظن إليها

[١٥٨]

وقت نزول القرآن، ولكن لما اشتغل علماء الاحياء حديثا بدراسة الحشرات ووضعوا في دراستها علما قائما بذاته تبينت لهم حقائق مذهلة عن حياة الحشرات التي تبلغ مئات الآلاف في أنواعها، وأن كل نوع منها يتميز بأشكاله وألوانه وطبائعه وغازاته المميزة لكل نوع منها عما سواه، وقد دلت الدراسة المستفيضة للحشرات أن بعضها له حياة اجتماعية ذات نظم ومبادئ وقوانين تلتزم بها في إعداد مساكنها

والحصول على أقواتها والدفاع عن نفسها والتعاون فيما بينها بصورة تدهش العقول وذلك بإلهام من خالقها الذى يجعلها تبدو وكأنها أم لها كيان ونظام وعمران.

ومن دراسة حياة العناكب لاحظ العلماء أن بيت العنكبوت له شكل هندسى خاص دقيق الصنع ومقام في مكان مختار له في الزوايا أو بين غصون الاشجار وأن كل خيط من الخيوط المبنى منها البيت مكون من أربعة خيوط أدق منه، ويخرج كل خيط من الخيوط الأربعة من قناة خاصة في جسم العنكبوت، ولا يقتصر بيت العنكبوت على أنه مأوى يسكن فيه بل هو في نفس الوقت مصيدة تقع في بعض حبالها اللزجة الحشرات الطائرة مثل الذباب وغيره لتكون فريسة يتغذى عليها، وإنه لمنظر يثير الدهشة حقا عندما يرى الانسان هذه الحشرة الرقيقة تتحرك بأرجلها الدقيقة بسرعة بين خيوط بيتها الواهى لتمسك بفرائسها، فسبحان الله الذى خلق كل شئ وقدر كيانه تقديرا وألهمه حياته تنظيما وتدبيراً ومع أن عالم الحشرات من العوالم المحجبة بأسرارها عنا ولا يعلم بعض خفاياها إلا الدارسون لها إلا أن القرآن الكريم اهتم بأمرها وسمى بعض سورته بأسماء حشرات منها مثل سورة النمل وسورة النحل وسورة العنكبوت ليلفت أنظارنا إلى قدرة خالقنا القدير وحكمة ربنا الحكيم وإحاطة ربنا العليم بعالمها، والله سبحانه لم يخلقها عبثاً بل له حكمة عليا في النافع منها والضار وفى الظاهر منها والخفى، أنه سبحانه الذى أتقن كل شئ خلقه وله في كل شئ آية تدل على أنه الواحد.

[١٥٩]

وقال تعالى في سورة فاطر آية - ٢٨: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء).

تفسير علماء الدين: ألم تر - أيها العاقل - أن الله أنزل من السماء ماء فأخرج به ثمرات مختلفا ألوانها، منها الاحمر والاصفر والخلو والمر والطيب والخبيث، ومن الجبال جبال طرائق وخطوط بيض وحمر مختلفة بالشدة والضعف وجبال شديدة السواد، ومن الناس والدواب والابل والبقر والغنم مختلف ألوانه كذلك في الشكل والحجم، وما يتدبر هذا الصنع العجيب ويخشى صانعه إلا العلماء الذين يدركون أسرار صنعه، إن الله غالب يخشاه المؤمنون غفور كثير المحو لذنوب من يرجع إليه.

النظرة العلمية: ليس الاعجاز العلمى في هذه الآية هو التنويه فقط بما للجبال من ألوان مختلفة ترجع إلى اختلاف المواد التى تكون صخورها من حديد يجعل لونها السائد أحمر أو منجنيزا وفحم يجعله أسود أو نحاس يجعله أصفر وغير ذلك ولكن الاعجاز هو الربط بين إخراج ثمرات مختلفات الالوان يروى شجرها ماء واحد، وخلق جبال حمر وبيض وسود يرجع أصلها إلى مادة واحدة متجانسة التركيب أصلها من باطن الارض ويسمى علماء الجيولوجيا بالصهارة، وهذه الصهارة عندما تتبثق في أماكن مختلفة من الارض

وعلى أعماق مختلفة من السطح يعترى تركيبها الاختلاف فتتصلب آخر الامر في كتل أو جبال مختلفات المادة واللون وهكذا فسنة الله واحدة لان الاصل واحد والفروع مختلفة ومتباينة وفي هذا متاع وفائدة لبنى آدم.

[١٦٠]

وقال تعالى في سورة النحل آية - ١٤: (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون).

تفسير علماء الدين: وهو الذى ذلل البحر وجعله في خدمتكم لتصطادوا ولتأكلوا منه لحم الاسماك طريا طازجا، وتستخرجوا منه ما تتحلون به كالمرجان واللؤلؤ، وترى أيها الناظر المتأمل السفن تجرى فيه شاقة مياهه تحمل الامتعة والاقوات، وقد سخره الله لذلك لتتفعوا بما فيه وتطلبوا من فضل الله الرزق عن طريق التجارة وغيرها، ولتشكروه على ما هيأه لكم وذلك لخدمتكم.

النظرة العلمية: يجد العلم في هذه الآية مجالا للنظر في أهمية لحم الاسماك في التغذية سواء كان طازجا أو مجففا أو مملحا فهو لا يقل أهمية عن لحم الحيوانات والطيور، وذلك لاحتوائه على المواد البروتينية وعلى نسبة من المواد الدهنية كما يحتوى أيضا على بعض الاملاح المعدنية ولذلك فهو غذاء هام لنا ونأخذ منه بعض الزيوت المحتوية على الفيتامينات الهامة لاسيما زيت سمك القرش والحوت كما أن الاسماك مصدر من مصادر اليود وخصوصا الاسماك البحرية.

يقول الله تعالى في سورة الاعراف آية - ٣١: (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين)

[١٦١]

تفسير رجال الدين: يا بنى آدم خذوا زينتكم من اللباس المادى الذى يستر العورة ومن اللباس الادبى وهو التقوى عند كل مكان للصلاة، وفى كل وقت تؤدون فيه العبادة، وتمتعوا بالاكل والشرب غير مسرفين في ذلك فلا تتناولوا المحرم، ولا تتجاوزوا الحد المعقول من المتعة، إن الله لا يرضى عن المسرفين.

النظرة العلمية: يرى علماء الطب أن الآية تبصر الناس بضرر الاكثار من الاكل والشرب لان الطب الحديث يقول إن للجسم حاجته المحدودة من الطعام والشراب والكافية لعملياته الحيوية فإن زادت عن ذلك زادت أعباء الجهاز الهضمى وإرهاقه، وزادت فضلاته ومخلفاته التى قد تتراكم في الجسم وتلقى عبئا على الاجهزة الاخرى المختلفة فتجهد الكبد والقلب والكلى، كما أن الافراط في الاكل يسبب التخمة التى تساعد على ظهور أمراض كثيرة مثل تصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم والنقرس والروماتزم وأمراض القلب.

ويجب أن يعمل الانسان بقول الرسول: حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه.

ولنا في الصوم خير علاج لتطهير الجسم من شرور الافراط في الاكل والشرب.

وقال تعالى في سورة الرحمن آية - ٦٢ - ٦٨: (ومن دونهما جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان مدهامتان فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهما عينان نضاختان فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهما فاكهة ونخل ورمان)

[١٦٢]

تفسير علماء الدين: ومن دون الجنتين السابقتين جنتان أخريان فبأى نعمة من نعم ربكما تجحدان، خضراوان قد اشتدت خضرتهما حتى مالت إلى السواد فبأى نعمة من نعم ربكما تجحدان، فيهما عينان فوارتان بالماء لا تنقطعان، فبأى نعمة من نعم ربكما تجحدان، فيهما فاكهة من صنوف مختلفة ونخل ورمان.

النظرة العلمية: يثبت العلم أن أكثر الطعام فائدة للإنسان الفاكهة بأنواعها المختلفة فقد جمع سبحانه فيها من الغذاء والدواء ما جعلها مكتملة العناصر اللازمة لصحة الابدان وقد خص الله العليم الخبير بما خلق بعض أنواع الفاكهة التي ذكرها في هذه الآية بأنها ذات فائدة غذائية أكثر من غيرها وهذه هي النخل والرمان، أما النخل فقد دلت التحاليل الكيميائية على أن التمر يحتوى على نسبة مرتفعة من السكريات (٧٦ % تقريبا) ويستفيد الجسم من التمر في إنتاج طاقة عالية وسعر حرارى كبير علاوة على ما يحتوى عليه من عناصر الكالسيوم والحديد والفسفور وكميات من الفيتامينات الواقية من مرض البلاجرا مما يجعل التمر غذاء كاملا، أما الرمان فيحتوى لبه وعصيره على نسبة مرتفعة من حمض الليمونيك الذى يساعد بتأثيره على تقليل أثر الحموضة في البول والدم مما يكون سببا في تجنب مرض النقرس وتكوين حصى الكلى، كما أن عصير الرمان به نسبة لا بأس بها من السكريات السهلة الاحتراق والمولدة للطاقة، كما أن به مادة عفصية قابضة تقى الامعاء مما يصيبها من إسهال، كما أن قشور سيقان أشجار الرمان تستخدم في القضاء على الدودة الشرطية.

[١٦٣]

وقال تعالى في سورة البقرة آية - ١٧٣: إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله). تفسير علماء الدين: حرم الله عليكم أيها المؤمنون أكل الميتة التي لم تذبح من الحيوان وكذلك الدم ومثله في التحريم لحم الخنزير وما ذكر وقت ذبحه غير إسم الله من أسماء الوثن وغيره.

النظرة العلمية: تدل التحاليل الطبية لجسم الحيوان الميت أنه مات نتيجة مرض أصابه وهذا المرض يجعل لحمه فاسدا ومضرا بالإنسان إذا أكله وقد يكون مرضا معديا، ودلت كذلك على أن في دم جميع المواد السامة والميكروبات التي تعرض الإنسان للأمراض الفتاكة بحياته، كما أظهرت التحاليل أن لحم الخنزير فيه مواد ضارة وديدان إذا دخلت جسم الإنسان أضرت بصحته.

قال تعالى في سور المؤمنون آية - ٢٠: (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين).

تفسير علماء الدين: وخلقنا لكم شجرة الزيتون التي تنبت في منطقة طور سيناء، وفي ثمارها زيت تنتفعون به وهو إدام للأكلين.

النظرة العلمية: يقرر العلم أن شجرة الزيتون من الأشجار الخشبية التي تعمر طويلا لمدد تزيد على مئات السنين وتثمر أثمارا مستمرة بغير جهد من الإنسان، كما

[١٦٤]

تتميز بأنها دائمة الخضرة جميلة المنظر، وتقيد الأبحاث العلمية أن الزيتون يعتبر مادة غذائية جيدة ففيه نسبة كبيرة من البروتين كما يتميز بوجود الأملاح الكلسية والحديدية والفسفاتية وهي مواد هامة وأساسية في غذاء الإنسان، وعلاوة على ذلك فإن الزيتون يحتوى على فيتامين أ، ب ويستخرج من ثماره زيت الزيتون الذى يحتوى على نسبة عالية من الدهون السائلة التي تقيد الجهاز الهضمي عامة والكبد خاصة، ويفضل زيت الزيتون كافة أنواع الدهون الأخرى نباتية أو حيوانية لأنه لا يسبب أمراضا للدورة الدموية أو الشرايين كغيره من الدهون، كما أنه ملطف للجلد إذ يجعله ناعما مرنا، ولزيت الزيتون استعمالات أخرى كثيرة في الصناعة إذ يحضر منه بعض الصناعات ويدخل في تركيب أفضل أنواع الصابون وخير ما نختم الكلام عن أهمية الزيتون من ناحيته الغذائية والدوائية أن الله سبحانه وهو العليم الخبير بما خلق يقسم به في قوله تعالى: (والتين والزيتون وطور سيناء، والبلد الأمين) للتتويه بشأن الزيتون وبركته وعظيم منفعة، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إشادة بنعمة الزيتون، (إثتموا بزيتته وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة).

يقول الله تعالى في سورة المرسلات آية - ١ - ٧: (والمرسلات عرفاء، فالعاصفات عصفا، والناشرات نشرًا فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا، إنما توعدون لواقع).

تفسير علماء الدين: أقسم الله بالآيات المنزلة على لسان جبريل إلى النبي بالعرف والخير وبالآيات القاهرة سائر الأديان الباطلة تنسفها نساء، وبالآيات الناشرات للحكمة والهداية في قلوب العالمين نشرًا عظيمًا، وبالآيات الفارقات بين الحق والباطل فرقا واضحا

[١٦٥]

وبالآيات الملقيات على الناس تذكرة تنفعهم - إعدارا لهم أو إنذارا - فلا تكون لهم حجة بأن الذى توعده من مجئ يوم القيامة لنازل حتما ولا ريب فيه.

النظرة العلمية: يرى العلم بتفسير العصرى أن هذه الآيات قد يكون فيها وصف واقعى دقيق ينطبق على الطائرات الحربية الحديثة بمختلف حركاتها وبجميع أفعالها فهي تعصف بقنابلها المدمرة وتترك الناس كالعصف المأكول، وفى أثناء قيامها بذلك تنشر المنشورات وتلقيها على الجنود وعلى غيرهم في ميادين الحرب وعلى الأهالى والسكان المدنيين للاخبار عما تريده الدولة المحاربة، وتفرق بصولتها الجبارة بين

الكتائب والفصائل والتجمعات فرقا بحيث لا يستقر تحتها شيء ولا يثبت أى جمع بلى إنه بمجرد رؤيتها يتفرق الناس ويختفون في الكهوف والملاجئ والمخابئ، فالمملقيات ذكرا يعنى ما تذكره وما تقصده من أعمال في منشوراتها عذرا تعتذر به عن إلقاء الدمار والتخريب على الأماكن البريئة كالمساجد والمعابد والمستشفيات، أو ننذرا أى إنذارا للاعداء ومطالبتهم بالخضوع والاذعان والتسليم، وهذه النظرة العصرية قد يكون فيها فكرة عن امتداد معانى الآيات إلى عصورنا والله سبحانه أعلم بمراده، وإنما هذه محاولة قد يكون فيها رأى صحيح أو غير صحيح وقد أوردناها مثلا من الامثلة التى تخطر لبعض المفكرين في عصرنا.

وقال تعالى في سورة يونس آية - ٢٤: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والانعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون)

[١٦٦]

تفسير علماء الدين: ما حالة الحياة الدنيا في روعتها وبهجتها، ثم في فنائتها بعد ذلك إلا كحالة الماء ينزل من السماء فيختلط به نبات الأرض مما يأكله الناس والحيوان فيزدهر ويثمر وتزدان به الأرض نضارة وبهجة حتى إذا بلغت الزينة تمامها، وأيقن أهلها أنهم مالكون زمامها ومنافعون بثمارها وخيراتها أمرنا بزوالها، فجعلناها شيئا محصودا، كأن لم تكن آهلة بسكانها وأخذة بهجتها من قبل، ففى كلتا الحالتين نضارة وازدهارا يبتهج الناس بها ثم يعقبهما زوال ودمار، وكما بين الله ذلك بالامثال الواضحة يبين الآيات ويفصل ما فيها من أحكام وآيات لقوم يتفكرون ويعقلون).

النظرة العلمية: تتجه بعض النظرات العلمية في هذه الآية الكريمة إلى تفسيرها تفسيراً عصرياً في ضوء ما جد في العالم من القنابل الذرية، ويقول هذا التفسير أن الكفار والاشرار ممن سكنوا الدنيا وظنوا أنهم بما تيسر لهم من المخترعات الحديثة قادرون على إصلاح الدنيا عمارتها، كما أنهم قادرون عليها هدمها وتخريبها وأنه لم يقو عندهم هذا الظن إلا بعد حصولهم على العلم الموصل إلى اختراع القنابل الذرية، ويفهم من هذه الآية أن أصحاب هذه القنابل سوف يسلط بعضهم على بعض فيتحاربون بها ويكون ذلك سببا في خراب الدنيا وجعلها حصيدا، وتحمل هذه الآية في طياتها رأيا آخر علميا وهو أن الدمار عندما يصيب الأرض يوم القيامة يجئ ليلا أو نهارا، والحقيقة أن الوقت واحد ولكنه يكون نهارا في نصف الكرة الأرضية وليلا في النصف الآخر لأن الأرض بموقعها أمام الشمس يكون نصفها مضيئا أى نهارا ونصفها الآخر مظلماً أى ليلا.

[١٦٧]

وقال تعالى في سورة النحل آية - ٥٨ (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم).

تفسير علماء الدين: وهم إذا أخبر أحدهم بأنه ولدت له أنثى صار وجهه مسودا من الحزن وهو مملوء غيظا يكظمه.

النظرة العلمية: لقد قررت الابحاث الطبية والنفسية أن الوجه مرآة النفس وذلك لان شكل الوجه يتوقف على الحالة التي تكون عليها العضلات التي تتحرك داخل الدهن تحت الجلد، وتتوقف حركتها على حالة أفكارنا وانفعالاتها فالغيظ المكثوم يظهر على الوجه فيحتقن ويظهر محمرا أولا، وإذا اشتد كظم الغيظ وطال أمد احتقان الوجه يبدو مسودا وهو ما يشاهد فعلا.

وقال تعالى في سورة يس آية - ٦٨: (ومن نعلمه ننكسه في الخلق أفلا يعقلون؟).

تفسير علماء الدين: ومن نطل عمره نرده من القوة إلى الضعف، أفلا يعقلون قدرتنا على ذلك ليعلموا أن الدنيا دار فناء وأن الآخرة هي دار البقاء؟! النظرية العلمية: لقد قرر العلم أن طول العمر يؤدي إلى الشيخوخة وأن الشيخوخة مرحلة من مراحل الضعف الذي ينتاب الكائن البشري فتؤدي به إلى ضعف قواه وإلى

[١٦٨]

ضمور عضلاته وإلى انخفاض مستوى قدرات أعضائه وكفاءتها الوظيفية، وقد عبر القرآن بكلمة نكس، وهي في معناها تدل على إطالة العمر إلى حد أن يبلغ الانسان أرذله وتعود حالته إلى حالة الطفولة في الضعف والعجز، وفي نظر العلم والعلماء أن حياة الانسان تأخذ ثلاث مراحل هي: النمو والنضج ثم الضمور الذي من أهم أسبابه الشيخوخة لزيادة قوى الهدم للجسم على قوة بنائه، وذلك لان خلايا الجسم كلها في تغير مستمر، وكذلك خلايا الدم ماعدا خلايا المخ والنخاع فإنها لا تتغير مدى الحياة، فإذا كانت نسبة تجدد الخلايا كنسبة هلاكها لا تظهر أعراض الضعف، أما إذا ازدادت نسبة هلاك الخلايا على تجدها في أى عضو ظهر ضمور هذا العضو، وعلى ذلك فكلما تقدم السن تضاعلت نسبة التجدد وظهر الضمور العام الذي هو فترة الضعف الاخيرة التي تشكل نهاية حياة الانسان وخاتمه مطافه في دنياه، وقد أكد القرآن هذه الحالة في قوله تعالى: هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل (سورة غافر) وقوله تعالى: (الله الذي خلقكم من ضعف، ثم جعل من بعد ضعف قوة، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) (سورة الروم) وقوله تعالى: والله خلقكم ثم يتوفاكم، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئا إن الله عليم قدير (سورة النحل)

[١٦٩]

خلاصة البيان في ثبوت الاعجاز العلمى للقرآن إن خير ما نختم به هذا الكتاب هو التأكيد بأن إعجاز القرآن سواء من ناحيته البيانية أو العلمية هو حقيقة كبرى واضحة وضوح الشمس في رابعة النار، ويتجلى

وضوحها لكل من درس علوم القرآن دراسة صحيحة، واستطاع أن يزداد علما بما وصل إليه العلماء المتخصصون في مباحث العلوم الطبيعية من فلك وكيمياء وطب ورياضة وهندسة، أو تزود من العلوم الاجتماعية والنفسية والكونية بقسط وافر لوجد في القرآن الكريم ثروة من العلوم والمعارف وكنزا من القوانين والنواميس التي أودعها الله في الكائنات والمخلوقات، وهى السنن الكونية التى وصفها الله بقوله تعالى: (فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا).

وهذه السنن والقوانين التى أوجدها الله في ملكوته بحكمته، وأجراها بتدبيره قد استطاع الانسان المفكر أن يهتدى إلى بعض منها بتوفيق من الله، وظهر له ما فيها من التوافق والتطابق بين ما وصل إليه من معلومات وما في الكون من حقائق ثابتة فدل ذلك على إعجاز القرآن العلمى، ومعلوم أن القرآن نزل على محمد رسول الله ليكون قبل كل شئ كتاب هداية للناس جميعا، وأنه في جملته وتفصيله دعوة حق تهدى إلى عبادة الله وحده وترك ما يعبد الناس من الطواغيت والاصنام والوثان والايمان الوثيق بالله وكتبه ورسله وبالغيب وبالقضاء خيره وشره، وأنه إلى جانب ما يدعو إليه من التقى ومكارم الاخلاق فإنه يحض على النظر والتأمل والتدبر فيما خلق الله في الارض وفى السماء من بدائع الكائنات وروائع المخلوقات الدالة على جلال صانعها والشاهدة على قدرته وحكمته.

[١٧٠]

وقد شأنت إرادة الله العليم الخبير أن يودع في القرآن كنزا ثميناً من العلوم القيمة المتعلقة بأمر الدين والدنيا، وقد عرض سبحانه هذه العلوم القرآنية في كتابه المقدس بصورة تخالف تمام المخالفة ما عليه كتب البشر القائمة على عرض مادتها بأسلوب المقدمات والتجارب والبراهين والنتائج بل جاء على نسق فريد من البيان المعجز الذى يسوق روائع المعانى ودقائق العلوم والمعارف خلال ما يلقيه من الحكم والمواعظ، وما يبديه من الترغيب والترهيب وما يبينه من الاوامر والنواهي والاحكام والشرائع وما يعرضه من العبر في ثنايا القصص والامثال فصار بذلك كتابا مقدسا حافلا بكل رائع من الآيات لفظا ومعنى وحقيقة وشرعية، فلا عجب أن يكون المعجزة الالهية الخالدة، التى تدل على أن الاسلام هو دين الله الحق، وأنه المنهج الربانى الصالح لكل زمان ومكان وقد وصف الله في هذا القرآن كل ما أبدعه من مخلوقاته وصف العليم الخبير بأسرارها وأحوالها ومقوماتها بعبارات وإشارات ودلالات كانت وقت نزولها في عصر النبوة فوق إدراك عقول عامة الناس لتفشى البداوة والجهل في ذلك الحين، ولكنها كانت مفهومة فهما دينيا رائقا في قلوب الذين آمنوا إيماننا خالصا، وكانت روح الايمان تضى أرواحهم فيرون آيات الله وبهائها في نفوسهم ساطعة الرواء.

وتؤكد السيرة النبوية أن محمدا صلوات الله وسلامه عليه كان نبيا أميا لا يقرأ ولا يكتب، وأنه عاش في صباه راعى غنم وفى شبابه مزاولا للتجارة وبعد زواجه اشتغل في مال زوجته بالتجارة، ولم يكن له أى؟

شاط في تحصيل العلم أو الاجتماع بأهل الكتاب لتلقى علومهم، ولذلك يتسأل الناس: من أين لمحمد النبي الأمامي هذا العلم الرباني الغزير؟ ومن أين له كل هذه الفيوضات من بحار

[١٧١]

العلوم الإلهية والكونية التي هي فوق مدارك البشر في زمان نزولها؟، إنها ولا شك من عند الله الذي أوحاها إليه في كتابه المبين، وما ألهمه إياها لبيان رسالة الدين الإسلامي الحنيف لأنه صلى الله عليه وسلم ما كان ينطق عن الهوى.

ولما انتشر الإسلام وعم نوره شيئاً فشيئاً تقدمت العلوم بتأثيره خلال العصور التالية التي أخذ العلماء والفقهاء فيها يدوسون القرآن دراسة مستفيضة ويتوسعون في فهم معانيه وأسراره ومقاصده، وقد ساعدتهم على تلك الدراسة ما ابتكره المفكرون من وسائل وأجهزة ومختبرات، وما قدمه الأمراء المسلمون والحكام المستبثرون من تأييد وتشجيع للعلماء لحياء دولة العلم حتى استطاعوا بفضل جدهم واجتهادهم أن يضعوا أسس العلوم والمعارف التي قامت عليها الحضارة الإسلامية الزاهرة، وقد مكنت كشف علماء المسلمين الناس أن يعرفوا ما في الكون من كائنات لها مقوماتها وقوانينها وعناصرها ذات المزايا والخصائص والسنن التي تحكمها، وفي ضوء هذه الكشف العلمية المادية ظهرت آيات الإعجاز العلمي في القرآن واضحة جلية مع ما ظهر فيه من إعجازات أخرى كثيرة فيه من أبرزها إعجازه التشريعي.

لقد بدأنا الباب الثالث من هذا الكتاب بلمحة عن كوكبنا الأرضي وما يحيط به من سماء ونجوم وكواكب، وأشربا إلى أن هذا الكوكب كان في وقت من الاوقات قطعة من جرم الشمس انفصلت عنها، وفي خلال مرور ملايين السنين بعد الانفصال أخذت تبرد وتغمرها المياه التي تكونت من الغازات المنتشرة حولها وصارت بذلك صالحة لقيام الحياة بها للنبات والحيوان والانسان وقد برهن على ذلك علماء الفلك قديما بفضل اجتهادهم ومثابرتهم على المشاهدة

[١٧٢]

والملاحظة الدقيقة والاستنتاج مما يروونه ويدركونه من ظاهرات الكون حولهم وتكرار حدوثها باستمرار وانتظام.

وبعد ذلك بقرون عديدة جاءت دولة العلم الحديثة بإمكانياتها الهائلة واختراعاتها المدهشة لتؤكد للعالم بأدلة مادية محسوسة على صحة بعض ما قرره العلماء والفلاسفة القدماء وذلك بعد ما تمكن العلم بوسائله المبتكرة من الوصول إلى القمر والمريخ في رحلات الفضاء التي تحدث وتكرر على مرأى ومسمع من أهل عصرنا، وأتى رواد الفضاء بالدليل القاطع على أن القمر جزء من الأرض وأن الأرض جزء من الشمس بما أحضره من تراب القمر وصخوره التي فحصوها وحللوها فوجدوها لا تختلف في مكوناتها

وخصائصها عن تربة الارض وصخورها وأحوالها، كما وجدوا أنها متفقة في أعمارها التي تقدر بنحو خمسة بلايين من السنين.

وقد أثبتت الابحاث قديما وحديثا أن المجموعة الشمسية كانت كتلة واحدة، وأن الشمس انفجرت تحت تأثير عوامل مختلفة وتناثرت أجزاء منها كانت مختلفة الاحجام والاوزان وتباعدت هذه الاجزاء عن الشمس بمسافات تتناسب مع أحجامها وأوزانها، واحتفظ كل منها بحركته حول نفسه وبدورته حول الشمس في مداره الخاص ويدل على ذلك قول الله تعالى: (وكل في فلك يسبحون).

ويقرر العلم الحديث أن ملكوت الله العظيم والممتد بلا نهاية والمتسع باستمرار فيه بلايين النجوم ذات الاقدار المختلفة حجما ولمعانا وكل واحد من هذه النجوم يتفجر كما انفجرت شمسا مكونة مجموعاتا من الكواكب الدائرة حولها، وبهذه الانفجارات الكثيرة للنجوم يتسع نطاق ملك الله، ثم إن هذه النجوم كانت أجزاء من سدم هائلة هي السحب الكونية التي كانت متصلة ثم انفصل

[١٧٣]

بعضها عن بعض بسبب هذه الانفجارات التي حدثت بصورة دقيقة ومحكمة وتركت ما تناثر منها في حركة منتظمة بلا خلل ولا تصادم بينها، وهذا مصداق قوله تعالى: (والسما بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون) سورة الذاريات آية - ٤٧.

والحقائق الثابتة والمشاهدة بأجهزتنا الدقيقة في الصور الفوتغرافية العديدة التي حصلنا عليها تدلنا دلالة واضحة على أن جميع ما في الكون الشاسع من حجم الذرة إلى حجم أكبر النجوم لا تتحرك أو تدور أو تسبح في أفلاكها إلا بحكمة فائقة وتقدير منتهى في الدقة حيث لا شيء مطلقا في ملك الله يتحرك حركة عشوائية لانه سبحانه قدر كل شيء تقديرا وأحكمه إحكاما.

وإليك هاتين الآيتين لزيادة التأكيد على الاعجاز العلمي للقرآن: الاولى قوله تعالى في سورة الحجر آية ١٤ - ١٦: (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ولقد جعلنا في في السماء بروجاً وزيناها للنظرين) وتبين هذه الآية أن الله سبحانه يخبرنا بدليل علمي أن أهل مكة ما كانوا يؤمنون حتى لو تحقق لهم ما يطالبون به من دلائل مادية محسوسة يرونها إذا ما فتح الله لهم بابا يدخلون منه إلى أقطار السموات ليجولوا في أرجائها ليروا ما كان يبدو لهم من جمال الانوار وبهجة الالوان وقت الشفق والغسق فلا يرون وقتها إلا ظلاما دامسا خاليا من زينة الكواكب كما يرى رواد الفضاء الظلام المطبق في رحلاتهم لان الشمس لا تظهر أنوارها إلا بوجود ذرات التراب وذرات بخار الماء في الجو المحيط بنا لتعكس أنوارها وهذه الذرات غير موجودة في الفضاء الخارجي ولذلك يقولون إمعانا في التكذيب لقد سحرنا محمد وسكر أبصارنا فعميت بهذا السحر عن رؤية ما كنا نراه من قبل من زينة الكواكب.

والآية الثانية قوله تعالى في سورة النور آية - ٤٣:

[١٧٤]

(ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما، وترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار) وتشير هذه الآية إلى السحب الركامية التي تسوقها الرياح وتجعلها متراكمة فوق بعضها وينزل منها المطر ويتكون فيها البرد كالحصى الذى يتساقط مع المطر الغزير كالجبال فينفع بعض الناس ويضر بآخرين، وفي هذه السحب تتكون شحنات كهربائية سالبة وموجبة ينشأ عن احتكاكها الرعد والبرق الذى يذهب شدة ضوءه بالابصار، وهذه كلها حقائق أثبتتها العلم الحديث ولم تكن معروفة من قبل، والخلاصة أن دولة العلم كلما ازدادت اتساعا ورسوخا كلما ازدادت أسرار القرآن وعلومه وآياته تألقا وتوهجا وذلك مصداق قوله تعالى: (سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) سورة فصلت آية - ٥٣ ونختتم هذا الكتاب بقول: (لا إله إلا الله) لأنها كلمة التوحيد التى نمت وأورقت وأثمرت شجرة الايمان بالقرآن، ولهذا كانت فاتحة الكتاب هي تعريف بالله وبالطريق الهادى إليه في إيجاز بليغ يلخص مضمون القرآن كله في سبع آيات تشمل الحمد لله وطلب الهداية والنعم والحفظ من الضلال والمضلين، فاجعل اللهم القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور بصائرنا وطريق سعينا إليك بالعمل بما فيه آمين.

[تم بحمد الله].